91-90

روايـــة

محمد مهيب جبـــر

2012

obeikandl.com

91 - 90

روايــة

محمد مهيب جبــر

الطبعة الأولى

حزيران 2012

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

صدرت عن

دار الجندي للنشر والتوزيع / القدس– فلسطين

00972542263454

info@aljundi.biz

www. aljundi.biz

التصميم

شريف سمحان

00972599875664

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن خطي من المؤلف.

obeikandl.com

الإهداء

. . . إلى كل الشهداء الذين قضوا في الطريق إلى فلسطين

. . . إلى الأسرى في السجون والمعتقلات

. . . وإلى القابضين على حلمنا مثل الجمر في قلوبهم

. . . إلى كل هؤلاء جميعاً .. أهدي هذه الرواية.

obeikandl.com

هـــذه الـــروايـــة

بين عامي 1990 و1991 شهد العالم تغييرات دراماتيكية هائلة كان من ابرزها غزو الكويت وانهيار الاتحاد السوفياتي .. فولدت أمم جديدة . واخرى توحدت.. وراح التاريخ يخط سطوره من مسارات جديدة بعضها ارتد في اتجاه معاكس.. وتشكلت تحالفات دولية جديدة.. وتغيرت نظم .. ونسفت نظريات مثلت دساتير لبعض الدول في بعض الحالات.. وةتقاربت بعض العقائد وتطرّفت.. وسقطت افكار كثيرة من تلك التي ابقت السلام الكوني على نار هادئة لاكثر من نصف قرن.. تاركة جنون حرب من نوع جديد ينفلت من عقاله ليعيث في الارض دماراً وقتلاً وخراباً باسم الحرية والعدل.

اما في فلسطين، حيث تدور احداث هذه الرواية، فقد تغير كل شيء من حولها الا الاحتلال العنصري البغيض.. فقد ظل جاثماً على صدر أهلها.. وظلت المقاومة مستمرة ممثلة بالفتى عمر، وهو فتى في السابعة عشرة من عمره، شاءت الاقدار ان يكون بطلاً لمهمة صعبة تحتاج قوة وصبراً وجلداً لكشف شبكة عملاء محلية.

وفي سياق الرواية، تسلط الاضواء على كيفية سقوط مدينة نابلس ضمن باقي مدن الضفة الغربية تحت الاحتلال عام 1967، وما فعله الاحتلال لاخماد روح المقاومة بمحاولات تخريب العقول ودس العملاء والجواسيس بين الفلسطينيين والطرق القذرة التي اتبعها لتجنيدهم..

ومعظم احداث الرواية حقيقية بشكل عام ولكن مع تغيير في الاسماء والاماكن، مع اضفاء جانب من الخيال على بعض الاحداث للمحافظة على تماسكها بصورة اقرب للكيفية التي حدثت بها، وربطها بجانب من التراث والفولكلور الفلسطيني العظيم.

obeikandl.com

الفصل الاول

سعد الخبايا

منتصف مارس/آذار 1990

ربما هي الصدفة.. أو ربما هو القدر الذي دفع أحداث أسبوع مضى لتلتقي في تلك الليلة في بيت زحف إليه الظلام مضمخاً بعبق أزهار اللوز المحمرّة في نوّاره الأبيض.

كان يوم آخر من المواجهات والمظاهرات قد إنتهى بسقوط شهداء وجرحى .. وظل الجنود من بعدها كامنين وراء الزوايا والمتاريس بمدرعات وآليات مصفحة حتى ساعات المساء..

أما الأطفال فقد ظلوا ينتظرون اطلالة أي شيء يتحرك من ناحيتهم ليمطروه بالحجارة من أماكن مقابلة تناثرت فيها أكوام من "الدبش" و"الطوب" المكسر، وعلت فيها سحابات متباعدة من دخان

obeikandl.com

إطارات ما كان ينطفىء أحدها حتى يشتعل غيره على الفور.

كان ذلك آخر يوم من أسبوع "سعد الخبايا"، حيث "تظهر الحيايا ويصبح المطر كالهدايا" كما يقول الفلاحون... لكنه أسبوعٍ كان ينذر بتحولات في مصائر كثيرة راحت عناوينها تتوالى تباعاً في نشرة التلفزيون المسائية:

فالجامعة العربية نقلت أمانتها العامة من تونس إلى القاهرة..

وقادة اليمن كانوا يواصلون اجتماعات في تعز لتوحيد الشمال مع الجنوب بعد حرب أهلية أراقت دماء غزيرة في الجبال والسهول.

والمسيحيون في لبنان ما زالوا منشغلين في "حرب الغاء" بدأها رئيس الحكومة العسكرية ميشال عون مدعوماً من سوريا منذ أكثر من شهرين قبل أن يعيد توجيه المدافع ضدها في "حرب تحريرية" في نهاية العام لإخراج قواتها من لبنان.

ومن العراق أنباء عن حشود للجيش على حدود الكويت بعد فشل وساطة أردنية مع دول الخليج حول خلافات على ديون ونفط.

وفي النشرة نفسها راح الفتى عمر يتابع مع أهله صوراً لإنهيار حكومة شامير بسحب الثقة عنها في "الكنيست" بعد توتر مع واشنطن بشأن مطالب واضحة بوقف الاستيطان في الاراضي التي احتلتها اسرائيل عام 1967.

لكن ما حوّل اهتمام عمر عن متابعة بقية النشرة، وعن إحتفالات الأفارقة المستمرة منذ خمسة أيام بخروج زعيمهم نيلسون مانديلا بعد سجنه 27 عاما في نظام عنصري مشابه، هو ما تناهى إلى سمعه مما كانت تقوله والدته وهي تعد أكواباً من الشاي وتقدّم أحدها لوالده:

– هل عرفت بأن البنت ولاء هربت إلى بيت أخوالها؟

كان السؤال مثيرا لإهتمام الجميع .. وخاصة عمر.. فبالاضافة الى والده الفلاح الذي ما كان قد خلع "قمبازه" بعد.. تحولت أنظار عمر وشقيقته التي تصغره عاماً والتي كانت جالسة على الأرض بجواره، مع أنظار بقية اخوته نحو أمهم ليسمعوا منها بفضول بقية الحكاية فور أن سألها الوالد

مستفسراً:

* ولاء من؟ إبنة حليمة؟

وردت الأم:

– نعم .. حليمة زوجة عبدالسميع.

* وهل عرفت السبب؟

– لا أحد يعرف بعد.. و"نسوان" أخوالها متكتمات على الموضوع..

ثم تابعت:

– "الله يستر على ولايانا وعلى جميع الولايا"..

وعندما سمعها تقول ذلك، ظن عمر كما ظن والده أيضاً أن في الأمر شيئاً يمس الشرف.. فسألها للتأكد، لكنها ردت:

• لا أعرف .. "النسوان" لم يلمحن الى شيء.. لكنهن يقلن إن هناك مشكلة بين البنت وبين أبيها وأمها، وهي تصر على عدم العودة إلى رام الله حتى لو ذبحها أخوالها مثل عنزة.

– وماذا يقول أخوالها؟

• أخوالها مترددون، عدا أصغرهم حسام .. "فهو الوحيد اللي شادد على ايدها وما بدّو اياها ترجع".

ورد الأب وهو يحاول إيجاد سبب ما يفسر به ما كان ينوي قوله بصوت مرتفع:

• "المشاكل كثرت بين الاولاد وأهاليهم هالايام، الله يرحم أيام زمان.. ما كنا نستجري نرفع عيوننا فيهم.. واللي يقولوه يمشي على رقابنا مثل السيف".

وردت الأم:

– صحيح.. "بس الله يبارك في اولادنا.. والله بيرفعوا الراس".

وعندما أكملت قائلة: "يا خبر اليوم بفلوس بكرة ببلاش"، عادت عيون عمر الى شاشة التلفزيون لمتابعة بقية النشرة، لكن تفكيره حاد إلى إتجاه آخر..

إنه لا يعرف ولاء، لكنه يتذكرها .. فتاة في نفس عمره وطوله تقريباً.. سمراء جميلة.. عيناها ملونتان واسعتان.. ونهداها المكتنزان كانا يكادان يفرّان من فتحة البلوزة في أعلى صدرها عندما رآها لمرة واحدة قبل عامين تقريباً.. وكانت ساقاها الطويلتان قد التصقتا ببنطال من الجينز الأزرق .. ولها شفتان رقيقتان.. وشعر أسود كان يتدلّى كثيفاً من رأسها إلى ما تحت رقبتها الطويلة.

كانت يومها قد قدمت مع والدها ووالدتها لزيارتهم في المنزل في زيارة قصيرة، لكنها تركت منذ ذلك اليوم صورةً لم تنمح بعدها أبداً من ذاكرة عمر..

كان ذلك عندما التقت عيونهما لمرة وحيدة لكنها سرعان ما أشاحت بصرها عنه بعدها خجلاً في لحظة سرت أثنائها في قلبه خفقة كالخدر اللذيذ هزت كل كيانه.

وقد ظل يومها منتظراً بقية الزيارة آملاً ان تلتقي العينان مرة أخرى.. لكن ولاء رحلت دون أن تفعل.

أما أصغر أخوالها حسام، فهو يكبره بعام ونصف، لكنهما يعملان في خلية واحدة في التنظيم منذ عامين.. وبالتحديد منذ اليوم التالي الذي أعلن فيه أبوعمار إعلان الإستقلال من قاعة قصر الأمم في نادي الصنوبر في الجزائر..

يومها كان برد "المربعنية" القارس يوخز الوجوه بلسعاته الحادة .. ويتسلل من تحت الملابس الشتوية والبطانيات الثقيلة التي يكسوها الفراء من الجانبين.

ورغم انخفاض درجة الحرارة في ذلك اليوم إلى تسع درجات، وزمجرة الرياح الباردة بسرعة عاتية، لكن الهتافات تعانقت مع زخات المطر.. وفر المنخفض الجوي القادم من القطب الشمالي نحو الشرق.. ودوت زغاريد النساء حتى وصلت مسامع أولئك الجنود الذين كانوا يختبئون في مدرعاتهم الحصينة وهم يصوبون رشاشاتهم بإتجاه الأطفال .. وخرجت المسيرات تجوب الشوارع في الليل رغم عصف الرياح الباردة وتحت زخّات المطر ..

وتقافز الذين كانوا يلتحفون في بيوتهم بالبطانيات والأغطية الثقيلة وهم يتعانقون في لحظة ابتهاج غمرتها دموع طاغية من الفرح طالما اشتاقوا اليه بعد كل هذا السيل الذي قدمته الانتفاضة من الدماء وقوافل الشهداء التي مضت.. والمعتقلين الذين اقتيدوا للسجون .. والمعاقين .. والأرامل.. واليتامى الذين لم يضق بهم حلم التحرير والعودة بعد.

يومها كان حسام محمولاً على الاكتاف وهو يهتف للحرية ولفلسطين.. وكان عمر وراءه في الصف الثاني بين الجموع وهي تردد بصوت واحد كل هتاف كان يتوالى بتوق الى النصر والتحرير.

وعندما تفرق الجمع بالرصاص وقنابل الغاز المسيل للدموع التي اطلقها الجنود بكثافة، وجد عمر نفسه مع حسام يتوحدان تحت أزيز الرصاص و"خنقة" دخان القنابل في توزيع البصل والمحارم الورقية على بقية المتظاهرين لكفكفة الدموع قبل إستكمال المواجهة من زاوية أخرى في الشارع.

– ولكن ما حكاية ولاء؟ ولماذا يعارض حسام بقية إخوته في موضوع عودتها إلى أمها وأبيها في رام الله؟

ذاك هو السؤال الذي ظل يلح على عمر بحثاً عن إجابة مقنعة فيما تبقى من سواد تلك الليلة التي ظلت معبقة بأريج أزهار اللوز المنبعث من بين تلك الأشجار الكثيفة التي تحتضن القرية بكرومها وبساتينها من كل جانب.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

"عصفور" في عسقلان

بعيداً عن القرية، وفي معتقل عسقلان جنوبي مدينة المجدل.. كان "سعد الخبايا" قد أظهر أفعى أخرى في ذلك اليوم.

فعندما عاد نعيم من "فورة" المساء محاطاً بعدد من الإسرى منعوا عنه حتى مجرد الإلتفات يميناً أو يساراً، لم يكن هو نفسه نعيم الذي خرج معهم قبل ساعتين.. وبحلول الليل، وعندما كان عمر مستغرقاً في البحث عن تفسير لهروب ولاء وهو يتابع نشرة المساء في منزله في القرية، لم يكن كل ما مرّ من أحداث في ذلك اليوم في المعتقل يعادل هول الصدمة التي أحدثتها المفاجأة لموجه القسم الأمني غسان وبقية المعتقلين.

ومعتقل عسقلان المكون من طابقين، والواقع على بعد 15 كيلومترا

obeikandl.com

من غزة، عدا عن أنه واحد من أقدم المعتقلات التي أقامتها قوات الإنتداب البريطاني عام 1936، فإن اكثر ما يميزه هو سقف ساحته المنفتح على سماوات الأمل في الحرية.. وشجرة النخل التي إخترقت إرتفاع هذا السقف المفتوح من وسط ساحته رمزاً للصمود وتحدي عاديات الزمن الذي يمر بطيئاً على المعتقلين، وحيث كل أسير فيه موضوع تحت المراقبة بالعين المجردة والكاميرات على مدار الساعة.

ومنذ نقله إلى هذا المعتقل، إعتاد غسان، إبن الحادية والثلاثين، والقيادي المعتقل بحكمين مؤبدين، أن يسند ظهره إلى تلك النخلة في كل يوم يخرج فيه المعتقلون "للفورة" متأملاً سوره الذي يرتفع بعلو ستة أمتار، والمحاط بأسلاك شائكة وأبراج مراقبة وكاميرات التصوير، وفي زنازينه الرطبة المزدحمة دائماً التي لا تدخلها أشعة الشمس، والحرارة القاسية التي لا تطاق في أقسام المحكومين الخمسة المسلسلة أبجديا عدا الخامس منها الذي يعرف باسم "حيط"، والقسمين 11 و12 الخاصين بالموقوفين.

والى قسم "حيط" كان نعيم، إبن الرابعة والعشرين عاما، والذي تنقل بين عدة معتقلات قد نقل قبل ثلاثة اسابيع من معتقل الخليل مع دفعة من الموقوفين جاء معظمهم في "البوسطة" من معتقل جنيد في نابلس، وكان من بينهم من نقل "كبسولة" في احشائه تثير شكوكاً حول نعيم، وبأنه قد يكون "عصفورا"، وهي الصفة التي ينعت بها عملاء المخابرات الاسرائيلية الذين يزرعون في السجون، وذلك بالرغم مما كان يظهره من تطرف في الفكر القومي ووحدوية في السلوك الوطني في كل معتقل تنقل فيه من قبل.

وفي ذلك المساء تأكدت الشكوك أخيراً في نعيم عندما توجه أحد الاسرى الذين كلفوا بمراقبته إلى غسان في مكانه تحت الشجرة ليضع في يده الدليل الحاسم.

فقد اعتاد نعيم منذ أن قدم إلى المعتقل أن يتجه فوراً بعد الخروج الى "الفورة" لإحضار كرة سلة يلهو بها مع من يرافقه من الأسرى.. وقد لاحظ الذين كلفوا بمراقبته من قبل غسان، أنه كثيرا ما كان يقذف الكرة

لتعلو من فوق السور كي تستقر خلفه .. ثم تعاد مرة أخرى من وراء السور من قبل شرطي الحراسة غير المرئي في الطرف الآخر.

وفي ذلك المساء، وقبل أن يهم نعيم بقذف الكرة، قفز أحدهم أمامه لينتزع منه الكرة، وثبتها بكلتا يديه.. وتأكد الشك بوجود ورقة صغيرة كانت ملفوفة بحجم ثقب المنفاخ دسها نعيم في ذلك الثقب.. وهي الورقة نفسها التي سلمها لغسان تحت النخلة، بينما كان نعيم ما زال مشدوهاً وهو متجمّد كالمشلول في مكانه وهو يتابع ما كان يجري بينهما، فيما علت وجهه ملامح وجوم وصدمة من إنكشاف أمره أخيراً.

وبمجرد دخوله مثل فأر مذعور إلى داخل القسم وهو يفكر في طريقه تخرجه من المأزق الذي وجد نفسه فيه، إتجه فوراً إلى الحمام، ووضع إصبعاً في أنفه ثم جرحه بأحد أظفاره بقوة كي ينزف منه الدم غزيراً ويكون حجته في الهرب من الغرفة، لكنه قبل ان يخرج من الحمام لطلب نقله الى العيادة الطبية كان أحد الاسرى من أقوياء البنية قد لحق به ليسدد له على الفور لكمة قوية أوقعته في زاوية الحمام، ثم طلب منه البقاء في مكانه وألا يغادره حتى المساء، محذراً اياه من أن اثنين من المعتقلين سيحيطان به وقت "العد"، وأنهما جاهزان "لتشطيب" وجهه بشفرات الحلاقة – وهي علامة العار التي تميز العملاء الى الابد– إن بدرت منه أية حركة أو حاول الهرب.

وحسب الأوامر.. وقف نعيم في طابور "العد" مستسلماً بشكل طبيعي بين بقية المعتقلين.. لم يلتفت لا يميناً ولا يساراً.. ولم يزّم شفتيه.. أو يرفع حاجبيه، أو يحرك إحدى يديه أو رجليه.. بل لم يحاول حتى أن يبدي أية اشارة تعني أنه يطلب النجدة من المأزق الذي وقع فيه.. ومع ذلك كانت عيونه تشعّ برعب خفي كان يهزّ كل أركانه من الداخل.. رعب سرعان ما أنفجر مرةً واحدةً فور خروج الجنود وإغلاقهم باب القسم وذلك عندما خر راكعاً أمام غسان وهو يقول بصوت مذعور:

– أنا الذي قتلته..

ثم انخرط في بكاءٍ مريرٍ وهو يطلب الصفح مردداً بنبرات مخنوقة أكثر من مرة:

– إغفر لي.. سامحني.. أرجوك..

كان المشهد مؤثراً جعل بقية المعتقلين في الغرفة، وبينهم إياد الذي كان يعد صناديق كرتونية لإستكمال بناء مجسم لبيته في القرية التي يسكنها أيضاً مع عمر، يحولون عيونهم جميعاً نحو نعيم وهو ما زال راكعاً أمام غسان بإنتظار أن يسمعوا بقية هذا الإعتراف الفوري الذي جاء مباغتاً، ومعرفة إسم القتيل.

وبهدوء رد عليه غسان الذي أخذته المفاجأة والدهشة ايضاً من سرعة إنهيار نعيم بهذا الشكل سائلاً:

– قتلت من؟

وسادت لحظة من الترقب والرهبة شعر الجميع بأنها مرت كالمخاض الصعب على نعيم الذي كان ما زال مطأطئاً رأسه نحو الارض قبل ان يفتح شفتيه:

• أخوك.. انا من قتل أخاك؟

وعلا الوجوم وجه غسان وهو يطالعه بعيون فضحت الرعشة التي سرت في جسمه وهو يعاود السؤال مرتجفاً وخائفاً من أن يسمع ما كان يريد أن يسمعه منذ زمن طويل:

– أخي من؟

لحظتها رفع نعيم رأسه نحو غسان وهو يمسح بيدين مرتعشتين دموعاً غزيرة عكست شعوره الخانق بالندم، وأفصح:

• أخوك.. الدكتور جليل.

وقبل أن تبدر أية حركة أخرى من غسان الذي إنتابته نوبة من هياج وصرع مفاجيء، هرع بقية الأسرى نحوه للإمساك به وهو يحاول التملص منهم .. أما إياد فقد أمسك بنعيم الذي امتقع لون وجهه بالأصفر من شدة الخوف في تلك اللحظة ليبعده عن غسان، فيما طلب أعضاء من التنظيم وفقاً للمتعارف عليه في مثل هذه الاحوال وقف التحقيق فوراً ليتولاه مسؤول آخر غير غسان كي لا تتحول هذه المسألة الوطنية إلى موضوع شخصي أو عائلي.

obeikandl.com

لكن غسان الذي نجح عدد من المعتقلين في النهاية من السيطرة على نوبة الانفعال التي تلبسته، وإعادته إلى "برشه" أسند ظهره إلى الحائط والدموع ما زالت تطفر من عينيه، ورعشة شديدة ظلت تهزه طوال تلك الليلة وهو ينظر إلى نعيم بحقد ظاهر يعكس رغبة ملحة في إفتراسه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

بانتظار الحقيقة

تقلب عمر كثيراً في فراشه وهو يغالب النوم فيما تبقى من تلك الليلة دون أن يعرف سبباً لكل هذا التفكير في ولاء منذ اللحظة التي نطقت أمه باسمها..

فمع أنه بلغ السابعة عشرة من عمره حديثاً، لكنه لم يفكر يوماً من قبل في فتاة أو في علاقة حب مع إحداهن من بنات القرية أو حتى من خارجها..

فالقرية التي تحضنها بساتين الزيتون وكروم اللوز والتين والاشجار الحرجية من كل جانب، والتي لا تبعد كثيرا عن مدينة نابلس شمال الضفة الغربية لا يخفى فيها أمر.. ومن الصعب أن لا تنكشف علاقة كهذه لتصبح سيرة تتناقلها الألسن في وقت قصير.

obeikandl.com

كما ان سنوات الاحتلال التي مضت منذ أبصر عمر النور لأول مرة، وشب خلالها نزعت من الناس كل المشاعر الجميلة والأحاسيس الرقيقة، ولم تترك في قلوب الشبان والشابات على السواء سوى رغبات تتأجج كل يوم في المقاومة والانتقام حتى ينتزعوا منه شكل الحياة الطبيعية التي يحياها كل انسان آخر على وجه الارض إلا في مدن وقرى فلسطين المحتلة التي كوى إحتلال الاسرائيليين سكان أهلها من دون تمييز بين طفل وشاب أو مسن .. أنثى كان أم ذكراً .. بأبغض ما يمكن للنفس البشرية ان تتخيله من حقد وكراهية لجنود تفننوا في قتل المارين في الشوارع بلا رحمة.. والتعذيب في المعتقلات بلا شفقة.. ومداهمة والبيوت ونسفها بلا أدنى وازع من ضمير أو أخلاق.

ورغم ان القرية كبرت الى حدّ أنها اصبحت مثل بلدة فيها معصرة للزيتون، ومسجدان، ومدرستان ثانويتان للذكور والإناث، وعلى أطرافها مبان من عدة أدوار.. الا أن سكانها ومعظمهم أقارب من نفس العائلات ما زالوا يرون فيها تلك القرية الصغيرة التي تتكىء وادعة على سفح تل .. والتي تميزها أزقة ضيقة تتلوّى بين بيوت قديمة بنيت من قطع حجارة صخرية كبيرة وعريضة لم تتمكن دوريات الاحتلال بسببها من دخولها يوماً، خاصة بعدما اشتدت الملاحقة ضد المطاردين والذين كانوا ينزلون من الجبال أحيانا الى بيوتهم للإستحمام والاطمئنان على ذويهم بحراسة مرافقيهم الذين كانوا يتخذون مواقع مراقبة مأمونة عند المداخل.

ومن هؤلاء كان عمر يرى في القائد الميداني المطارد فارس قدوة ومثلاً ينعش فيه شغفه منذ الطفولة بشخصية الثائر الأممي شي جيفارا.. و "جيفارا غزة" محمد الأسود الذي اصبح قائدا لإحدى المجموعات المقاتلة في "طلائع المقاومة الشعبية" بعد هزيمة حزيران، والذي اوقف بعملياته الجريئة سيل الصهاينة لقطاع غزة ومحاولاتهم إغواء الشباب بأساليب الفسق والفجور، والذي واصل كفاحه بعد اعتقاله سنتين ونصف السنة في جو من المطاردة الشرسة، وقاد الثوار بشكل لا يعرف اليأس، وعاقب الخونة والعملاء بعد محاكمات عادلة وتحذيرهم من قبل من التمادي في الخيانة،

ومنع جنود الاحتلال من التجرؤ على دخول غزة في الليل، وأستشهد في نفس العام الذي ولد فيه عمر، وهو العام الذي شهد ايضا حرب اكتوبر عام 1973.

ومنذ طفولته، لم يبصر عمر غير ممارسات الاحتلال الإجرامية البشعة، وظلمه الطاغي من غير حدود. ومن الجلسات السياسية التي كانت تعقد في بيت عمه الأكبر إتجه تفكيره مبكّراً للعمل الوطني، متأثراً بأبطال المقاومة الذين كانت تنسج حولهم الأساطير، وبصعود الخط الرافض في منطقته عام 1974 عندما تشكلت جبهة رفض فلسطينية، وتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد لاحقا في 17 سبتمبر عام 1978 وكان عمره سبع سنوات آنذاك.

وبدلاً من التفكير في البنات، كان عمر يرى في نفسه وهو الطالب المجدّ، والذي يتمتع بسمعة محترمة بين أهالي القرية ان يكون بطلاً من أبطال الانتفاضة، تنسج من حوله الأساطير أيضا مثلما نسجت حول فارس و "جيفارا غزة" .. وغيرهما من القادة المطاردين الذين دوّخوا قوات الاحتلال، وكان مستعداً في سبيل ذلك ان يبذل كل تضحية وتحمل ومكابدة حتى لو تعلق الأمر بالدوس على مشاعره تجاه فتاة رقيقة .. ناعمة.. وجميلة مثل ولاء.

ولكن لو كان في هروب ولاء ما يتعلق بالشرف أو بنقيصة وطنية لما وقف حسام، رفيقه وكاتم سره التنظيمي، وحيداً دون بقية أخوالها إلى جانبها كما ذكرت والدته أثناء حوارها الذي دار مع أبيه.. ولذلك قرر أن يلتقي مع حسام صبيحة اليوم التالي لمعرفة الحقيقة.. مدفوعاً الى ذلك بصورة ولاء التي ظلت مرتسمة في ذاكرته منذ ذلك اليوم الذي أشاحت بنظرها خجلاً عنه، والتي لم تفارقه طيلة ما تبقى من تلك الليلة حتى نام.

أما هناك، وفي معتقل عسقلان، فقد استغرق الأمر نحو ساعة حتى عاد الهدوء مرة أخرى في تلك الليلة إلى الغرفة بعد الصدمة المفاجئة التي أحدثها إعتراف نعيم بقتل عالم الذرة الدكتور جليل، وهو لغز لفّه غموض كبير حول الظروف التي اختفى فيها فجأة ثم عثر عليه مشنوقا على شجرة قبل ستة اعوام.

كان الدكتور جليل، الذي قفزت صورته لتطغى على كل شيء في رأس غسان طوال ما تبقى من تلك الليلة وهو يغالب النوم عبثاً، قد درس في امريكا، وبعد تخرجه عمل استاذاً في احدى جامعاتها لبضع سنوات.. وأثناء ذلك التقى طالبة أمريكية ظلت تطارده حتى أوقعته في شباكها وتزوجته.. لكنهما لم ينجبا أبناء.. وبعدما عاد برفقتها قرر البقاء لخدمة الوطن بأبحاثه ودراساته العلمية، والمشاركة في تعليم أبناء شعبه.. ورغم العروض والإغراءات التي وصلته للعودة الى أمريكا، الا أنه ظل مصراً على البقاء ولم يعد.

وقد أقام أولاً في منزل أهله في مخيم للاجئين.. ثم بنى منزله الخاص على ربوة في جبل جرزيم تطل على جبل عيبال المقابل، وبأسفلهما وادي التفاح شمال غرب مدينة نابلس.

ورغم الخلافات التي نشبت بين عائلة الدكتور جليل التي أرادت بقاءه في الوطن، وعائلة زوجته التي كانت مصرة على عودة إبنتهم الى أمريكا، الا أن الدكتور جليل ظل مصراً على موقفه..

لكن ما كان الدكتور جليل، وكذلك بقية أفراد اهله يعجزون عن فهم سببه هو أن هذا الخلاف كان يتسع يوماً بعد يوم من دون سبب أو مبرر.. وكان يتخذ في بعض الأحيان ابعاداً أخلاقية كاتهامه بالتودد من الطالبات الجميلات، او إغوائهن لإقامة علاقات جنسية معهن.. وأحيانا كانت تذكر أسماء طالبات بعينهن يكنّ فعلاً ممن يقوم بتدريسهن.. فيصيبه ذلك ويصيبهن بالإحراج وهو يدافع عن نفسه أمام هيئة التدريس وفي أوساط الطلبة..

وقد شاع عنه أكثر من مرة أنه سيطلق زوجته ليتزوج إحدى طالباته وهي إبنة رجل أعمال ثري من نابلس.

وأثناء إختفائه تناثرت الأقاويل والشكوك والشائعات في كل مكان، بعضها ما تحدث عن إنتحاره، وبعضها ما رجّح نظرية المؤامرة والإنتقام للشرف وغسل العار..

ولكن الحقيقة لم تكن كذلك..

فباعترافه الذي لم يكتمل بعد، فجّر نعيم بركاناً من الحزن والغموض كان كامناً طيلة ستة أعوام في نفس غسان الذي لم يصدق يوماً أية رواية مما قيلت عن أخيه، والتي كان يتمنى فيما تبقى من تلك الليلة أن يعرف تفاصيلها من دون صبر قبل أن يبزغ فجر اليوم التالي.

لكنه في كل مرة كان يحاول فيها النهوض من "برشه" للتوجه نحو نعيم الذي ظل قابعاً هو الآخر كفأر مذعور قبالته طوال الليل على جدار آخر مفكراً بمصيره بعد انكشاف أمره، كان إياد الذي ظل يقظاً بجواره يمسك به ليعيده الى مكانه مذكراً إياه بقواعد التنظيم، وبأن الحقيقة على وشك أن تعرف غداً.. ومواسياً إياه بأن نعيم لا بد أن يدفع الثمن باهظاً بعد إنتهاء التحقيق.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

قراءة سياسية

في طريق عودته من المدرسة التي توقفت فيها الدراسة في اليوم التالي من الحصة الثانية لخروج مظاهرة منها توجهت نحو الحاجز الأول عند مدخل القرية، عرج عمر نحو بيت حسام، وعندما سأل والدته التي خرجت إلى الباب وعلم منها بانه ليس موجوداً، طلب منها إبلاغه بانه سينتظره في البيت، وانه يوّد أن يراه.

لكنه قبل ان يصل الى بيته، سمع حسام وهو يركض خلفه محاولاً اللحاق به وهو ينادي عليه طالباً منه التوقف.

ثم سرعان ما بادره بالسؤال وهو يلهث:

• هل جئتني بشأن الإجتماع؟

obeikandl.com

ورد عمر مندهشا:

– أي إجتماع؟

• الاجتماع التنظيمي اليوم .. ألم يخبرك أحد من الشباب؟

وحاول عمر.. لكنه لم يذكر شيئاً من هذا القبيل.. وعندما أدرك حسام ذلك قال:

• كنت أظّنك أنهم إبلغوك وجئتني لمرافقتك إليه.

ورد عمر:

– ومتى موعد الإجتماع؟ وأين؟

لكن حسام لم يفصح، وإنما طلب منه إكمال الطريق نحو البيت أولاً، ومن هناك يذهبان معاً الى المكان.

ومع أن المسافة الى بيت عمر ومنه إلى مكان الاجتماع إستغرقت نحو نصف ساعة سيراً على الاقدام، إلاّ ان عمر لم يفلح ابداً في استدراج حسام لسؤاله عن سبب هروب إبنة شقيقته ولاء، كما خانته الشجاعة أكثر من مرة حاول فيها ان يفتح الموضوع بأية طريقة.. فقد إنحصر حديث حسام طوال تلك المدة على ما يدور في القرية في ظل الانتفاضة، والأساليب الجديدة التي أبتكرت في المدن والقرى الأخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة.. وما يمكن عمله للمحافظة على زخمها.. ومن من الشباب أعتقل ..ومن أفرج عنه..

وعندما وصلا الى منزل عضو ثالث في الخلية نفسها، جلس ثلاثتهم في "الحوش" على كراس تظللها أغصان شجرتي برتقال وليمون متجاورتين وأمامهم طاولة صغيرة عليها إبريق شاي ساخن وعدد من الأكواب، وراحوا يتبادلون الحديث في مواضيع شتى بانتظار بقية من سيأتون، وكان من بينهم مفوض سياسي قدم من جنين لكنه تأخر في الوصول لاضطراره الإلتفاف عبر طرق وعرة بين الجبال من أجل الوصول الى نابلس ومنها الى القرية.

وما أن اكتمل عدد المجتمعين وكانوا ستة حتى أخذ القادم من جنين ناصية الحديث قائلا:

• الأحداث من حولنا تتغيّر .. ونحن الآن في قلب الحدث.. الانتفاضة

مندفعة بقوة نحو تحقيق أهدافها.. لكن الخوف مما ستنتجه المتغيرات المتسارعة في المنطقة وفي العالم.

وفيما ظل الجميع منصتين بإصغاء تام تابع قائلا وهو يدور بعينيه من عضو لآخر:

• الوضع يزداد تعقيداً في لبنان .. الجنرال عون أعلن حربا ضد الجيش السوري، وقد يحدث تصادم مسلح..

وفي مصر محاولات لإشعال فتنة في المنيا حيث تم حرق عشرات المنازل والمحلات والصيدليات والسيارات وجمعيتين وكنيسة للكاثوليك في ابو قرقاص.

والوضع بين العراق والكويت يزداد توتراً منذ زيارة الملك حسين الى بغداد قبل أسبوعين حيث تبين أن المفاوضات وصلت إلى طريق مسدود، لأن الملك الأردني لم يتلقّ أي إشارة إيجابية من زعماء دول الخليج في ما يتعلق بأهداف صدام حسين الثلاثة وهي تسوية الخلافات الحدودية مع الكويت، لا سيما حقل الرميلة الغني بالنفط، والواقع في المنطقة المتنازع فيها. والموافقة على تأجيره جزيرتَي وربة وبوبيان لتؤمّنا له منفذاً إلى الخليج، وتسوية مشكلة الديون المتراكمة على العراق خلال الحرب مع إيران.

والجورجيون ما زالوا يرقصون في الشوارع بعلمهم الجديد فرحاً بإعلان إستقلالهم عن الإتحاد السوفياتي. وقد رأيتم ما حل برومانيا وانهيار الدولة وإعدام تشاوسيكو في أقل من 48 ساعة.. وهدم سور برلين، ومطالبة الألمان الشرقيين الآن بالانضمام الى ألمانيا الغربية..

وتوقف قليلا لإحتساء رشفة من كوب الشاي الذي كان أمامه ثم أكمل:

• وشامير الذي يرفض خطّة النقاط الخمس التي طرحها وزير الخارجية الامريكي جيمس بيكر يعدّ الآن لحكومة جديدة كلها من المتطرفين والمتشددين.

والحوار الدائر بين منظمة التحرير والادارة الامريكية لم يثمر شيئاً حتى الان..

وهذا كله يدعونا للتفكير في كيفية المحافظة على زخم الانتفاضة

ومواصلتها، فهي رأسمالنا الوحيد الآن، وإسرائيل تحاصرنا من كل الجهات، فيما العالم منشغلٌ بما يدور في مناطق أخرى.

وقبل ان يوجّه أحد من الحاضرين أي سؤال او إستفسار تابع قائلاً:

• جئت لأبلغكم بملخصنا للموقف .. وهو أننا قد نكون متجهين نحو أزمة عربية–عربية، أما الاتحاد السوفياتي الذي لم يتحرك بشأن ما جرى في رومانيا وما يجري في ألمانيا الشرقية حتى الآن فقد ينشغل عنا لفترة طويلة في معالجة التصدع والنزعات الانفصالية التي بدأت من أذربيجان قبل ستة أشهر، ثم في ليتوانيا وجورجيا بيومين، وهناك أنباء عن أن أستونيا ولاتفيا ستلحقان بهما قريبا. وهذا يعني أن الإنتفاضة قد تفقد دعماً قوياً يؤثر في مسارها وفي الاهداف التي نريدها أن تتحقق بعد كل هذا الثمن الباهظ الذي دفعناه طوال عامين واكثر..

وعندها سأل احد الحاضرين:

• وما المطلوب منا اذاً؟

ورد المفوض السياسي:

• مهمّة كل الخلايا في التنظيم الآن أن تعدّ تصورات وخطط عمل وإبتكار أساليب جديدة تحافظ على قوّة دفع ذاتي للانتفاضة كي لا يتبدد ما أنجزته وسط متغيرات كثيرة متوقعة وغير متوقعة، وهو ما لا يميل إلى صالحنا بالتاكيد.

وقبل ان ينتهي الإجتماع كانت التكليفات واضحة.. كل عضو في خلية قاعدية يعد تقريراً بما يتصوره من أفكار ويرفعه إلى مسؤوله المباشر ليلخص هذه التقارير في تقرير واحد، ثم يرفعه بدوره عبر مسؤولة المباشر لتصل كل التصورات فيما بعد إلى القيادة المحلية للانتفاضة.

وفي طريق عودتهما إلى البيت.. لم ينجح عمر مرة أخرى في إستدراج حسام لمعرفة الحقيقة بشأن السر الذي دفع ولاء إلى الهروب من بيت والديها ورفضها العودة إليه، بل أنه لم يجد أية فرصة تسمح له بذلك، فترك المحاولة غلى لقاء آخر.

الفصل الخامس

إغتيال الوزة

بعد " فورة " الصباح كان الموجهون الأمنيون في أقسام معتقل عسقلان قد اتفقوا على أن يتولى واحد من أقدم المعتقلين وأكبرهم حكماً بالسجن التحقيق مع نعيم بدلاً من غسان.

أما نعيم الذي ظل طوال ساعتي "الفورة" محاطاً بإثنين من المعتقلين وتحت أنظار باقي المعتقلين في قسمه، فلم يظهر أية حركة مريبة من شأنها أن توصل رسالة لأحد الحراس بأنه في خطر.

ومن مكانه وهو مسند ظهره للحائط، وإلى جواره إياد الذي كان يتابع إعداد صناديقه الكرتونية وتفقد أغلفة من معاجين الاسنان، وخيوط من الحرير أحضرها له أهله في الزيارة الأخيرة لحياكة أطراف المجسم بها،

obeikandl.com

جلس غسان مثل بقية المعتقلين مصغياً على أحرٍّ من الجمر لما سيكشفه نعيم أمام المحقق الجديد أيمن عن مقتل الدكتور جليل.

وما أن انتظمت حلقة التحقيق حتى بدأ نعيم الحديث قائلا:

• كان ذلك أوائل نيسان عام 1984، وأذكر أن ذاك اليوم كان يوم ثلاثاء حينما اتصل بي ضابط المخابرات ابوالنمر على غير العادة، وأمرني بالإسراع لمقابلته في مكتبه.. ذهبت وانا ارتجف خوفا من ان يكون أمري قد انكشف من قبل المطاردين، واني قد أعدم، فقد سبق ان ابلغني بانه ان وردني اي اتصال منه على رقم معروف ولم اجب، فعلي ان اغادر المنطقة فورا، وان اختفي لعدة ايام.. ولكني عندما وصلت هدأ من روعي وقال لي:

– إخترتك لعمليّة دقيقة ومهمّة، إن نجحت فيها ستحصل على مكافأة كبيرة.

ثم اخرج من جيب بنطاله ورقة وضعها على المكتب وأنا ما زلت اترقب ان اعرف ما يدور، ثم قال لي:

– أتعرف ما هذه الورقة؟

حركت وجهي يمنة ويسرة علامة النفي، فتابع:

– انها رسالة من "السي.آي.إيه"..

ورددت مندهشاً:

– السي.آي أيه!!

• نعم..السي.آي.إيه، انهم يبلغوننا عن شخص مهّم درس في امريكا ثم غادرها بشكل عادي دون ان ينتبهوا لخروجه.. ولكنه لم يعد.. ويطلبون منا التحري عنه.

وأجبته:

– هل تريد معرفة مكانه؟

ورد مبتسما:

• بل أن لا يعود إلى أمريكا.

وخرج الجواب مني بتلقائية:

– تقصد قتله؟

واجاب:

• يعجبني ذكاؤك، نحن نراقبه منذ مدة، كل شيء جاهز.. داخل بيته هناك من يراقبه.. ومن بيته الى الجامعة وبالعكس هناك من يراقبه... وداخل الجامعة التي يدرس فيها هناك من يراقبه ايضاً.

وسألته:

– وما المطلوب مني اذاً؟

فرد:

• لن تكون وحدك، هناك ثلاثة آخرون، وسارتب لأربعتكم اجتماعا تقررّون فيه موعد التنفيذ.

وسألته:

– ومن هو الشخص المطلوب؟ وهل اعرف أحدا من الثلاثة الآخرين؟

فقال:

• الشخص المطلوب هو الدكتور جليل الذي يدّرس في الجامعة، اما الثلاثة الآخرين فسوف تعرفهم قريباً.. ولكن تذكر أن زوجته معنا ايضاً، فهي مجندة من قبل السي.آي.إيه من قبل ان يتزوجا.. وسوف تساعدكم في العملية، وما أريده ان تعرفه الآن هو انك من سيقود العملية، وأنا أريدها ان تكون عملية نظيفة.. لا تثير أية شبهة امنية من قريب أو من بعيد..

وسألته:

– كيف؟

فرد موضحا:

• ما يعرفه الناس هو ان هناك خلافا بين عائلة الدكتور جليل وعائلة زوجته، وقد عملنا على إظهار هذا الخلاف علناً بمساعدة زوجته وعملاءنا، وأريدك ان تنفذ العمليّة بشكل يثير الشك في أن لها خلفيّة اجتماعيّة او أخلاقيّة أو أي شيء من هذا القبيل. ولكن من دون ان تثير الشك في انها عمليّة إغتيال.

ثم تابع وهو يقف خلف مكتبه في إشارة الى ان اللقاء قد انتهى:

• حتى نلتقي.. تولّ مراقبة محيط المنزل.. المداخل والمخارج.. وسأتصل

بك لاحقا لأبلغك عن مكان الاجتماع.

وتوقف نعيم طالبا ان يشرب شيئا من الماء يبلل به ريقه الذي شعر بأنه كان يجف أكثر كلما كان يواصل الحديث أمام المحقق أيمن والى يساره من يسجل الاعترافات، ثم تابع:

• بعد عدّة ايام ظللت أفكر فيها بخطّة للتنفيذ، التقينا نحن الأربعة بحضور أبوالنمر الذي عرفّنا إلى بعضنا في بداية الاجتماع، الاول سائق تاكسي اسمه عبد السلام، وهو الذي كان يتولى مراقبة الهدف من بيته الى الجامعة باستمرار، والاثنان الآخران هما الطالبان في الجامعة حاتم وعبدالقادر اللذان كانا يتوليان مراقبته وتتبع نشاطاته داخل الجامعة. أما زوجة الهدف فلم تحضر، لكن الضابط قال انها ستنفّذ ما سنتفق عليه بشأن دورها في الاجتماع، ثم بادرني بالسؤال:

• هل فكرت في خطة؟

قلت

– نعم.. ولكني بحاجة لمزيد من المعلومات لاختيار الوقت والمكان المناسبين..

فنظر الضابط نحو سائق التاكسي عبدالسلام والذي اجاب:

• كل تحركّات الدكتور جليل تتم في ساعات النهار، وقد تفحصت كل متر فيه تقريبا، ولكني اعتقد بأن من الصعب قتله في شارع لا تهدأ فيه الحركة خلال ساعات النهار.

ثم نظر الى حاتم الذي بدا انه ناقش الأمر مع عبدالقادر مسبقا، فاجاب:

• نعتقد بانه يمكن تنفيذ العملية في الجامعة بحيث نستدرجه بطريقة ما الى الحمام او الى المختبر، ثم تظهر العملية كأنها انتقام للشرف، وبهذا نحمي زوجته من الشبهات ايضاً.. لكن الصعوبة في التوقيت المناسب.

ثم عاد بنظره إلي وقال:

• وماذا عن خطتك؟

فأجبت:

• خطتي ان نخطفه من المنزل في وقت متأخر من الليل بمساعدة زوجته،

openkandil.com

ثم نشنقه في مكان ناء، وحتى يعثروا على الجثة نشيع انه انتحر أو قتل على خلفية شرف او لأمر يتعلق بالخلاف بين العائلتين.

وهز الضابط رأسه موافقا على خطتي مع انه قال انه كان يخفي خطة اخرى في جيبه، ثم سألني:

• خطتك جيدة.. وكيف ستنفذها؟

فاجبت:

– لقد راقبت المنزل ومحيطه جيدا، والعائق الوحيد وقت التنفيذ هو صوت محرك السيارة في الليل ان أردنا الدخول من الباب الرئيسي أو إن صحا أحد من الجيران.. لكني لاحظت انه يمكننا الدخول من باب خلفي لا يفصله عن السور سوى مسافة قصيرة.. وخطتي ان تساعدنا زوجته بتخديره ليلة التنفيذ، فندخل انا وحاتم وعبدالقادر الى المنزل باشارة من الزوجة ثم نكمّمه، ونربطه، ونحمله، ومن خلف السور يساعدنا عبدالسلام بنقله الى السيارة، ثم نذهب به الى المكان الذي سنتدرب على الذهاب اليه في الليل.

وواصل نعيم:

وفي ذلك الاجتماع اتفقنا على الخطّة، وعلى طريقة تنفيذها، وطلب أبوالنمر منا اختيار مكان الشنق، والتدّرب عليه جيداً في الظلام..وان نبلغه بذلك عندما نصبح جاهزين لتحديد موعد التنفيذ.

ثم توقف قليلا قبل ان يكمل:

• استغرق التدريب على عملية الخطف ومكان الشنق نحو عشرة ايام.. وقد اخترت كرماً على اطراف وادي التفاح بحيث يسهل الوصول الى عمقه بالسيارة في العتمة.. وكان عبدالسلام يتدرب على الطريق الذي سنسلكه في الذهاب الى المنزل ومنه الى الكرم في ساعات مختلفة من النهار حتى حفظ الطريق عن ظهر غيب.. ونحو الثالثة صباحا من كل ليلة كنا نذهب الى المنزل، ونجرب احياناً السير في الطريق من دون أنوار كي لا يلاحظنا أحد. وعندما اصبحنا جاهزين.. أبلغت الضابط.. فاختار ليلة خميس بحيث يكون اليوم التالي، الجمعة، يوم عطلة. وقال ان إشارة الزوجة ستكون إنارة ضوء

المطبخ ثم اطفاءه في الثانية تماماً.. وإن حدث أي تأخير من قبلنا.. فعلينا ان ننتظر الاشارة كل 10 دقائق بالضبط بعد ذلك. وأبلغنا بأن الباب الخلفي الذي سندخل منه هو باب المطبخ نفسه.

وفي تلك اللحظة، كان معظم المساجين في الغرفة قد اقتربوا من حلقة التحقيق وهم يواصلون الإصغاء بصمت مطبق لم يكن يسمع خلاله الاّ صوت نعيم .. وحتى إياد، فقد ترك مجسّم بيته الذي كان يصنعه من صناديق الكرتون وجلس مسنداً ظهره الى الحائط مثل غسان عن يمينه وهما يتابعان بعيونهما بقية الحكاية..

وتابع نعيم:

• في الليلة المحددة وصلنا قبل الثانية تماماً، وتوقفنا في مكان يمكننا من خلاله رؤية المطبخ رغم أن كل أضواء المنزل كانت مطفأة.. وعندما أنارت زوجته المصباح ثم أطفأته حسب الاشارة في الموعد المحدد، تقدم عبدالسلام بالسيارة من دون انوار، وركضنا انا وحاتم وعبد القادر لنقفز من فوق السور.. وعندما دخلنا المطبخ.. كانت زوجته واقفة هناك تحمل شمعة مشتعلة في يد، وباليد الاخرى أشارت لنا عن مكانه حيث كان مخدراً على "الصوفا" في الصالة.. وعلى الفور كمّمناه وأوثقنا يديه خلف ظهره، كما ربطنا قدميه وحملناه خارجين به من باب المطبخ حسب الخطة، واثناء ذلك كان عبدالسلام قد اقترب بالسيارة من السور وفتح باب "الدبة" الخلفي.. واعتلى عتبة باب السائق لتسهيل عملية النقل من فوق السور.. وقفزت أنا لأحمله مع عبدالسلام من الجهة المقابلة، ثم قفز الاثنان وجلسا في المقعد الخلفي بينما كنت وعبدالسلام نغلق باب "الدبة".. ومضينا الى المكان المحدد. ولم يستغرق الامر بعد ذلك 30 دقيقة حتى كان معلّقاً ببيجامته على شجرة، وقد فككنا الأربطة وأخذناها معنا.. ولم تكتشف الجثة بعد ذلك الاّ يوم السبت بعد عشرة ايام.

ثم سأله المحقق ايمن:

– وماذا عن الثلاثة الآخرين: عبدالسلام وعبدالقادر وحاتم؟

ورد نعيم:

• عبدالسلام هو السائق، ويعمل على سيارة صفراء خاصّة به كما ابلغني اثناء التدريب على عملية خطف وقتل الدكتور جليل، وقد نسيت رقم لوحات تلك السيارة لكن آخر رقمين فيها هما 66، لانهما نفس العام الذي ولدت فيه، كما أذكره أسمر بدينا، وكان طوال مدة التدريب يرتدي بنطالاً من الجينز وقمصانا مشجرة بألوان مختلفة. اما حاتم وعبدالقادر فهما طالبان في الجامعة، ويعملان بنفس الشبكة التي يقودها شعبان في قرية اياد.

وفي هذه المرة، كان وقع المفاجأة شديداً على إياد الذي انتفض في مكانه عند سماعه اسم شعبان، ثم تحرك بمؤخرته على الارض نحو حلقة التحقيق موجهاً السؤال مباشراً الى نعيم:

– شعبان؟

ورد نعيم هادئاً:

• نعم، شعبان بشحمه ولحمه.

وحاول إياد التشكيك في ما كان يقوله نعيم، فادار وجهه نحو المحقق ايمن قائلا:

– لا أعتقد بأن نعيم يقول الحقيقة، فما أعرفه عن شعبان انه وطني. وأاخشى ان نعيم يحاول تضليلنا أو زرع الشك بيننا.

غير ان نعيم رد على اياد مؤكداً انه لا يقول الاّ الحقيقة، وأضاف:

– ان لم يتمكن التنظيم من التأكد مما أقوله .. فانتظروا وصول المزيد من قادته الى هذا المكان. وان أردتم فاني مستعد للمساعدة في ذلك.

وحدّق فيه المحقق أيمن ملياً ثم قال:

• أنت؟ وكيف؟

ورد نعيم:

• صدقّوني بأني رجل صالح.. وقد تورطت في هذا العمل من غير ان يكون لي حول ولا قوة.. وانتم تعرفون الاسرائيليين.. ولا اريد الخوض في تفاصيل ما فعلوه بي كي يجبروني على التعامل معهم، لقد كان الأمر فوق ما يمكن ان يحتمله أي بشر.. لكني أعترف امامكم الآن باني كنت اقوم بعمل

حقير.. بل وعار على كل انسان تحت الاحتلال ان يفعله.. لكنهم جعلوا مني مثل سكير مدمن، كلما شرب كأسا آخر، كلما زاد ادماناً.. وكلما غاب عنه الكأس كلما زاد وضاعة وخسة، وانا اعرف ان كل هذا لن يشفع لي الآن..

ثم اردف وفرائصه ترتعد من الخوف:

– اعرف بانكم قد تأمرون باعدامي الليلة.. وقد لا أصحو على الحياة غداً في الصباح.. لكني اقسم امامكم باني أريد التوبة.. والآن.. ولا أريد غير فرصة وحيدة تمنحوني اياها كي اطهر نفسي، او افعلوا بي بعدها ما تشاؤون.

وصمت المحقق أيمن لحظة وهو يتبادل النظرات مع الذين كانوا يشاركون معه التحقيق وتسجيل الاعترافات ثم اجابه:

• انت لست أول "عصفور" يقع بين ايدينا، ولن تكون آخر الخونة الذين يستيقظ ضميرهم في اللحظة الاخيرة.. ولكن هل تعرف ما هي الفرصة الوحيدة التي نمنحها لهؤلاء كي يعودوا للمجتمع مواطنين صالحين؟

ورد نعيم وما زال يرتعش من الخوف:

• انا لا اريد العودة الى المجتمع مواطناً صالحاً فقط.. بل اريد العودة اليه مناضلاً مثلكم.. وانا مستعد لتنفيذ أية مهمّة تطلبون.

واجابه المحقق ايمن:

– هو شرط واحد.. ان تقتل جندياً او مستوطناً..

ومن مكانه، ورغم الصدمة التي هزّته بمعرفة سر مقتل أخيه جاء صوت غسان متهدجا:

– أو ما يعادل خسارتنا باغتيال الدكتور جليل..

ورد نعيم وهو يتنقل بناظريه بين المحقق أيمن وغسان قائلا:

• وأنا أقبل هذا الشرط.

غير ان المحقق أيمن رفض اعطاء نعيم جواباً حاسماً في تلك الليلة، وبالمقابل طلب منه ان يستعدّ لتقديم اعترافات كاملة ومفصلة بعد فورة المساء عن كل ما يعرفه من أسماء وعناوين أخرى لعملاء يعرفهم أو شارك في تنفيذ مهام إستخبارية ضد التنظيم معهم.. وأية معلومات أخرى عن

عمليات اغتيال يعرفها، والطريقة التي جندّوه بها.. وما ادّعاه من الضغوط التي اجبروه تحتها للموافقة على التعاون معهم.

كما طلب منه ألا يحاول الاتصال باحد من الضباط حتى يتم البت في أمره من قبل قيادة التنظيم في المعتقل.

وكان نعيم يهز رأسه بالإيجاب وهو يصغي لكل تعليمة، فيما كانت الدموع التي انهمرت غزيرة معظم الوقت اثناء التحقيق تنفجر من مآقيها كلما تقابلت مع نظرات الحزن والاسى المزوجة بالغضب والتي كانت تتفجر من عيني غسان.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس

تداعيات ذكرى

مرّت ساعات النهار طويلة على غسان وهو يستذكر بعدها حتى ساعة متاخرة من الليل أخاه الدكتور جليل الذي كان يكبره بسبع سنوات، والذي اشتهر صيته بعالم الذرة النابغ، والذي كان يرى قاتله أمامه دون السماح له بالاقتراب منه عملاً بقواعد التنظيم.

فما ان انتهى نعيم من كشف اللغز الذي مضى عليه ستة أعوام، حتى أرتسمت في ذهنه صورة شقيقه وزوجته التي أدرك ليلتها سبب إستعجالها وعدم إنتظارها الكثير من الوقت بعد العثور على جثته كي تعود الى امريكا وتنقطع كل الصلات بها الى الابد.

ورغم أن غسان لا يدخن في العادة ولا يطيق رائحة السجائر التي

obeikandl.com

تنتشر إجبارياً في كل ارجاء المعتقل.. الا انه أحرق في تلك الليلة عدداً من تلك السجائر التي يخزنّها إياد فيما الذكريات كانت تتداعى تباعاً في ذهنه..

فلم يكن أحد قد تخيل السيناريو الذي كشفه نعيم من قبل.. ولا حتى غسان نفسه الذي غالباً ما كان يربط أية عمليّة إعتداء أو إغتيال لشخصية مهمة أو نشطة بدور ما للمخابرات الاسرائيلية فيها.

كما ان احداً لم يشك في زوجته التي لم يعترض طريق عودتها أحد بعد دفنه بأسبوعين فقط من دون ان تثار أية شبهة حولها.

ويتذكر غسان مرة جمعت ثلاثتهم..

كان غسان يزور أخاه الدكتور جليل في يوم عطلة .. وكان الوقت قبل المغيب وهم جالسون في الشرفة يحتسون الشاي.. وفي الأفق امامهم كان جبل عيبال – المعروف ايضا باسم الجبل الشمالي– يبدو مثل لوحة بانورامية عريضة من المباني المشيدة من حجارة مقطعة ومنقوشة من الصخور بدءاً من المستشفى الوطني يميناً، وإنتهاء من ناحية اليسار بوادي التفاح الذي يسير في خانق عميق ليتصل بوادي الزومر في منطقة طولكرم غرباً ووادي الباذان شمال شرق المدينة، ويتزود بمياه الينابيع ليصب في وادي الفارعة الذي يرفد نهر الأردن.

يومها أشار الدكتور جليل باصبعه نحو مخيم عين بيت الماء (او مخيم رقم 1 كما تسميه وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين) في أسفل الجبل المقابل وقال لزوجته:

– في بيت هناك كنت مع غسان عندما احتلت نابلس في السابع من حزيران عام 1967.

ثم التفت نحو غسان وهو يسأله مستذكرا:

– هل تذكر يا غسان؟

ورد غسان:

• وكيف أنسى ذلك اليوم.. كان يوم أربعاء، وكان ثالث أيام الحرب.. ورغم ان عمري لم يتجاوز السنوات الست.. لكني ما زلت أتذكر دوي الانفجارات الذي لم يخمد في وادي التفاح إلاّ بعد أن اغارت طائرتان

إسرائيليتان على المكان في المساء.

وتدخل الدكتور جليل لوصف بعض التفاصيل مما جرى في ذلك اليوم قبل ان ينظر نحو زوجته قائلاً:

• في اليوم التالي قررت ان اكون شيئا مهماً..

ورمقه غسان يومها بنظرة تستوضح ما كان يعنيه، فأكمل:

• في الاسبوع التالي، حينما أذاع راديو القاهرة بيان الرئيس جمال عبدالناصر بعد الهزيمة، وإعلانه تحمل كامل المسؤولية، وقراره بالتنحي، عرفت معنى ان تهزم دولة.. لكني أدركت ايضاً ان انساناً واحداً فقط يمكنه ان يهزم جيشاً حتى لو قضى أمامه مدافعاً عن نفسه.

وأدرك غسان على الفور أن أخاه كان يعني البطل الأسطوري أبوهاشم..

وأبو هاشم.. هو الاسم الذي اطلقه النابلسيون على المقدم في الجيش الاردني صالح عبدالله شويعر، وهو من بني شمر، وقد اقاموا له في موقع استشهاده ضريحا عرّفوه بهذا اللقب نسبة للهاشميين لانهم ما كانوا يعرفون اسمه الحقيقي يومها.

ففي ذلك اليوم تصدى ابوهاشم وحيداً للواء إسرائيلي مدرع كان قادمً من غرب المدينة لملاقاة لواء مدرع آخر دخل قبله من الشرق عن طريق عصيرة الشمالية عبر غور الجفتلك ووادي الباذان قادما من مدينة بيسان.

وقد ظل ابو هاشم يقاتل لأكثر من اربع ساعات متواصلة انتهت بغارة من الطائرتين الحربيتين اللتين ظلتا تقصفان الموقع لنصف ساعة متواصلة قبل ان يهدأ صوت المدافع والانفجارات التي كان يسمع دويّها في كل ارجاء المدينة.

وحسب الرواية التي تناقلها سكان المدينة، فقد تصدّى ابوهاشم للواء الاسرائيلي أولا بمدفع دبابته حتى نفدت منه الذخيرة.. ثم راح يصادم فيها الدبابات الغازية حتى هلكت، وواصل القتال ببندقيته، ثم بمسدسه .. وأخيرا ترجل من الدبابة لمقاتلة الجنود الغازين باللكمات، الى ان تمكن منه احدهم برصاصة اصابته كما يقال في رأسه.

وفي الرواية نفسها ان وزير الحرب الأسرائيلي حينها موشيه ديان حضر الى المكان بمروحية، وأدّى التحية العسكرية لأبي هاشم مثلما فعل من قبله الجنود الذين حاربهم قبل ان يدفنوه، لكنه رفض بناء ضريح يليق بما سطره من بطولة وشجاعة كي لا يتحوله ذاك الضريح الى مزار وطني.

وعندما توجه الضابط الذي اعلن عن نفسه حاكما عسكريا للمدينة الى مبنى البلدية صبيحة اليوم التالي من احتلال المدينة طلب من رئيسها وأعضاء مجلسها الذين احضروا بسيارات مطافىء حمراء اللون ترفرف عليها رايات بيضاء تحت حراسة سيارات عسكرية إسرائيلية نقل الشهداء ودفنهم على الفور قائلا "ان أكثريتهم عند مداخل المدينة غربا وشرقا".

وقبل ان ينهي الاجتماع قال "أريد أن أقول لكم شيئا لا علاقة لكم به، يوم امس غرب المدينة وعند الظهر تعرضت قواتنا لمقاومة غير عادية، مدرعة للجيش الأردني تصدت لنا وقاتلت بشراسة، وفي النهاية تمكنا منها ودمرناها وقتل قائدها، احترمه جنودنا فأعدوا له قبرا دفن فيه بمراسم تليق بقائد شجاع وأدوا له التحية العسكرية".

وعندما ذهبوا لمكان القبر بعد الاستجابة لطلبهم، قرأوا الفاتحة، ووضعوا من حوله بعض الأحجار لتحديد مكانه، وبعد ذلك تم بناء ضريح على عجل من الاسمنت كتبوا على ضريحه "قبر الشهيد ابوهاشم".

وقد لاحظ غسان يومها ان قصة ذلك البطل الاسطوري لم تحرك ساكنا عند زوجة اخيه وهو يرويها كجزء من تجربته الشخصية وتاريخ المدينة، بل والتي كانت سببا وراء قراره دراسة الفيزياء النووية في امريكا .. ثم زواجهما هناك.. فقد كانت تصغي فقط وهي تحتسي الشاي، وفي احيان اخرى كانت تهز رأسها علامة على المتابعة في الاستماع.

لكنها عندما انهى حديثه علقت بجملة اثارت استغراب غسان على وجه التحديد، وهي الجملة التي ظلت عالقة في ذهنه من ذلك اللقاء حتى تلك الليلة التي كشف فيها نعيم سر اختفاء اخيه واغتياله بمساعدتها.

فيومها قالت:

– الاسرائيليون ليسوا متوحشين كما تقولون.. انهم حضاريون.. ويحترمون اعداءهم ايضا.

وغسان الذي لم يسقط عينيه عن نعيم طوال الوقت في تلك الليلة ايضا ، لم يختبر يوما احترام الاسرائيليين لاي شيء غير اسرائيلي او يهودي بالتحديد.. فحتى ذلك اليوم كانت الانتفاضة على ظلمهم ما زالت في اوجها .. وصور تكسير عظام الشبان بالحجارة على سفح جبل عراق التايه المقابل لقرية بلاطة من الجنود الاسرائيليين كانت لا تزال تهز العالم من صورها المتكررة على الفضائيات وفي مقدمة نشرات الاخبار.. وكأن زوجة اخيه لم تكن لترى شيئا من ذلك كله يومها وهي زوجة لعالم فلسطيني.

– والثلاثة الاخرون: عبدالسلام وحاتم وعبد القادر.. من هم؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع

يعيدون عن الشهاب

كان اياد ما زال يقظا وممددا على "برشه" على يسار غسان وعيناه في سقف الغرفة كأنما كان يستعرض هو الاخر شريطا من الذكريات عن شعبان الذي قال نعيم انه عميل هو الآخر.

وعندما مال غسان نحوه ليسأله ان كان يعرف احدا من الثلاثة الذين شاركوا في قتل اخيه، اتكأ اياد على مرفقه الايمن ثم قال بصوت منخفض لا يكاد يسمع من بقية المعتقلين الذين راحوا يغطون في النوم تباعا:

• ربما اعرف عبدالقادر وحاتم.. فانا اذكر هذين الاسمين عندما كنت في الجامعة قبل ان اطارد.. وفي عهد الدكتور جليل عندما كان يدرس فيها .. فقد كان هناك طالبان بهذين الاسمين.

obeikandl.com

وسأله غسان:

– هل تذكر شيئا عنهما له علاقة بالدكتور جليل.

ورد اياد:

– نعم .. وقد حدثت يومها مشاجرة.

ثم جلس مسندا ظهره الى الحائط كما كان غسان، واشعل سيجارة راح دخانها يعلو فيما عيون اياد تتابعها وهي تتشكل حلقات قبل ان تتلاشى في سماء الغرفة هو يقول:

• يومها كان الدكتور جليل قد انهى للتو محاضرة عن فيزياء الكم شرح فيها نظرية العالم فيلتمان ثابت الكلاسيكية الكهرومغناطيسية التي تشمل موجات الانتقال الى الوراء في الزمن، وكيف تأتي الموجات خلفية/ ماضوية الزمن لتوفير الطاقة المحافظة على أثر نقطة في الزمان والمكان، وبشكل ملائم لإلغاء كل " زمكان " آخر.

وفي الساحة بعد الخروج دار حوار بين طالبين حول هذه النظرية، فراح احدهما يحاول اسقاط النظرية على الاحتلال الاجنبي ومقاومة الشعوب في اي " زمكان " .. وكان الحوار شائقاً لدرجة انه استقطب طلابا آخرين عندما تحول للحديث عن مفهوم " اشعاع الجسم الاسود " ، والذي اسقطه احدهما على القوة الكامنة للمقاومة عند الشعب الفلسطيني في مواجهة الاحتلال الاسرائيلي الذي بدأ منذ عام 1967 بعد حقب مختلفة من الاستعمار الماضي والحديث.

وتدريجيا اتسعت دائرة الواقفين في الحلقة نفسها.. بعضهم كان يتدخل مؤيدا أو موضحا.. وبعضهم يبدي رأياً معارضاً.. وآخرون كانوا مكتفين بالاصغاء.

واتذكر ممن كان موجودا بين الجمع حاتم، الطالب في السنة الثالثة في كلية العلوم والذي كنا نلقبه بالمؤرشف لانه لم يكن يترك حدثا او تاريخا او تصريحا سياسيا مهما الا ويسجله في دفتر يوميات سميك رتبه بفهرسة منظمة.. ونادرا ما كان يسأله احد عن تصريح او موقف ما او خبر مهم الا ويفاجيء سائله بذكر رقم الوثيقة المحفوظة عنده عن ذلك.. وتاريخها

احياناً.. ثم يستخرجها بالرقم الخاص بها من دفتره.

كما كان من بين الواقفين قبالة حاتم في الحلقة نفسها عبدالقادر، الطالب في السنة الثانية في كلية الاداب، وهو طالب لم يكن احد يعرف انتماءه.. لكنه ما كان يترك ندوة او حلقة نقاشية تعقد في الوسط الطلابي دون ان يكون فيها.. وغالبا ما كان يصطدم في النقاشات مع عبدالقادر ان كانا موجودين في نفس المكان كما حصل في ذلك اليوم.

وقريبا من المتحاورين، وقف طلاب واشخاص آخرين يتابعون بعيونهم الحوار وهو ينتقل من متحدث الى آخر فيما كانت الاصوات تعلو تدريجيا بشيء من الصخب.

وفي لحظة انتقل بها الحديث الى خروج المقاومة من الاردن عقب احداث ايلول عام 1970، وذكر فيها اسم جورج حبش، حتى خرج الحوار عن السيطرة.. وتداخلت الاصوات.. فقد رد حاتم على عبد القادر قائلا:

– جورج حبش؟ "سأريك الآن من هو هذا الجورج حبش تبعك"..

وعلت الدهشة وجوه الجميع... فلم يسبق لاحد ان اتهم "حكيم الثورة" بما يشين سمعته النضالية والكفاحية منذ انطلاق الثورة اواسط الستينات.. لكن حاتم فتح دفتره وسط هذه الدهشة وهو يردد فيما هو يقلب الصفحات واحدة بعد اخرى:

– الوثيقة 18.. الوثيقة 18.. آه.. ها هي الصفحة..

ثم ركز عينيه في عيني عبدالقادر الواقف قبالته وهو يقرأ:

– اسمع ما هو مكتوب في هذه الوثيقة: "وقبل احداث ايلول 1970، قام جورج حبش بخطف أربع طائرات أوروبية وأنزلها في مطار المفرق العسكري، وفجرها بالديناميت، وأخذ جميع ركابها الذين كانوا ينتمون لجميع جنسيات العالم رهائن، وفي ذروة الأزمة التي أدت الى هذه الاحداث، هرب إلى كوريا الشمالية"..

وقبل ان يكمل قاطعه حاتم حانقا:

– حبش يهرب الى كوريا؟ حبش ظل في مختبئا في الاردن.. اما كل القيادات الاخرى فهي التي هربت، وحتى "ابوعمار".. هل نسيت بانه هرب

متنكرا بدشداشة وغترة وعقال البسه اياها الشيخ سعد الصباح؟

واتذكر ان رجلا في اواسط الثلاثينات لا اعرف لماذا كان موجودا في الجامعة يومها تدخل قائلا إن كلام عبدالقادر صحيح، وانه كان في الاردن ايام "ايلول"، وانه يعرف اين كان "الحكيم" مختبئا، وان ما اشيع عن زيارته الى كوريا كان باتفاق مع السفارة الكورية في دمشق من اجل التضليل ومن اجل حمايته من ملاحقة الجيش الاردني.

لكن الجدال لم يتوقف عند هذا الحد.. فسرعان ما تحول الكلام الى لكمات.. وتطايرت الكتب والمقاعد فوق الرؤوس.. وتحولت المشاجرة الى سياسية.. فيما راح البعض ممن كانوا واقفين يحاولون تهدئة الموقف.. اما حاتم وعبدالقادر فقد اختفيا من وسط هذه المعمعة مثل "فص ملح" ذاب فجأة.

وقبل ان يتابع اطفأ السيجارة التي كادت تحرق اصبعه ليشعل منها سيجارة اخرى وهو يقول:

• لكن ما يحيرني هو موضوع شعبان.

وساله غسان مستفسرا:

– شعبان من؟

واجابه اياد:

• شعبان الذي قال نعيم انه يدير شبكة العملاء في قريتنا.. فهذا الرجل معروف عنه انه شخصية وطنية في القرية.. وعنصر نشط فيها.. بل ان هناك من يعتقد بانه مسؤول خفي لا يظهر نفسه في التنظيم.

وقاطعه غسان قائلا:

– من يعترف منهارا بهذا الشكل لا اظنه قادرا على اختراع الوهم من فراغ، والحكاية التي رويتها لي عن حاتم وعبدالقادر تلقي ظلالا من الشك حولهما.. فلم تستبعد الشك في شعبان ايضا؟

ورد اياد:

• لا استطيع التصديق فعلا .. فعلى حد علمي شخصيا، فانه ساعد التنظيم احيانا في بعض الامور، لكني لا استطيع نفي الشك ايضا.. فكم من

العملاء كانوا مغطين بأردية الوطنية والكفاح.. ولو صدق نعيم حقا، فهذا يعني ان التنظيم مخترق او في خطر.. وفي الحالتين يجب ان نوصل هذه المعلومات باسرع وقت.

واجابه غسان:

– عدنان المعتقل في قسم ج سيطلق سراحه قريبا.. يمكنك ارسال المعلومات عن طريقه.

ورد اياد:

• نعم .. يجب ان تصل هذه المعلومة الى فارس باسرع وقت ممكن.

وايده غسان قائلا قبل ان يسحب البطانية لتغطي جسمه:

– ولا تنس عبدالسلام وحاتم وعبدالقادر ايضا.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن

مفاجأة في المنتزه

في اليوم التالي لم يتمكن عمر من لقاء حسام، ولم يحاول العثور عليه، فقد شغله التفكير بالتقرير الذي طلبه المفوض السياسي عن كل شيء آخر.. وكي يكون تقريره مدروسا بشكل جيد، فقد امضى عمر طيلة اليوم في لقاءات دردشة وحوارات مع زملائه في الوسط الطلابي عما يمكن فعله او تطويره او تصوره.. يتفق احيانا معهم على اشياء.. وفي احيان اخرى يعارض.. فالانتفاضة في رأيه يجب ان تظل محتفظة بصورتها الشعبية، معبرة عن عصيان شعب أعزل باسره يريد التحرر والاستقلال من احتلال طال امده، واوغل في ظلمه، وطغى في جبروته، ولا بد ان ينتهي ولو بالعصا والحجر.

obeikandl.com

لكن اللقاء تم صبيحة اليوم الذي بعده، ومن غير ميعاد.. فقد كان عمر خارجا من منزله في طريقه الى المدرسة عندما التقى حسام قرب معصرة الزيتون حيث بادره بالسؤال:

• متى يكون لك "مشوار" الى نابلس؟

ورد عمر:

– ولماذا نابلس؟ هل من شيء يستدعي الذهاب الى نابلس؟

ورد حسام:

• نعم.. لا اجد مكانا افضل من نابلس

– ولكنك تعرف بان الطريق صعب هذه الايام..الا عبر الطرق الالتفافية.

• وليكن.. هل يمكن ان نلتقي في حديقة "المنتزة" اليوم او غدا؟

وحار عمر في الاجابة.. فلماذا يريده حسام في نابلس وحدود القرية واسعة.. لكن حسام قطع عليه التفكير قائلا:

• هناك مهمة بشان شخص، وقد طلب فارس ان تساعدني فيها.

– الا نستطيع الحديث بشانها في اي مكان هنا؟

• كلا ليس الان.. كما ان الطرف المعني يجب ان يكون معنا ايضا.

وثار الفضول مجددا عند عمر.. فهو يعرف ان حسام كتوم جدا في المسائل المتعلقة بالتنظيم.. وربما لا يريد الافصاح عن شيء حول هذه المهمة، وعن الشخص الذي يعنيه، ولكن طالما ان فارس، هو الذي اختاره لهذه المهمة فليس من واجبه الا التنفيذ حتى لو لم يعرف بالتفاصيل التي لم يكن حسام يريد ان يتحدث فيها في تلك اللحظة.

ثم نظر الى حسام قائلا:

– حسنا.. ساتدبر اليوم امري بعد المدرسة.

ورد حسام:

• حسنا.. وسوف اسبقك الى هناك وانتظرك في "المنتزة" من الثانية بعد الظهر.

وللحظة حاول عمر استيقاف حسام قبل ان يمضي بعيدا عنه لعله يجد

جرأة في السؤال عن موضوع ولاء.. لكنه تردد، وشعر بانه قد لا يكون من حقه ان يعرف امورا شخصية عن الاخرين.. خاصة عندما يكون الامر متعلقا بفتاة قروية، بل وإبنة اخ من يتحدث معه.

وفي ذلك اليوم لم يكمل عمر ما تبقى من الدروس وهو يفكر بموضوع اللقاء في نابلس.. فان لم يسعفه الحظ ليذهب بسيارة احدهم وقت الظهيرة، فقد لا يستطيع ان يجد شخصا آخر يقبل بذلك..والطريق الى نابلس يزيد عن عشرة كيلومترات.. وقطع مثل هذه المسافة سيرا على الاقدام، وبعيدا عن انظار الجنود المتمركزين على الحواجز سيستغرق وقتا طويلا، وسيكون الامر شاقا عليه خلال هذه الفترة.

ولذلك، ما ان دنت الساعة من العاشرة حتى كان عمر في الطريق عائدا الى البيت ليبلغ اهله بأمر ذهابه الى نابلس واحتمال ان يبيت فيها لو تاخر عن وقت المغرب.. وفي السوق، وجد سيارة اجرة لاحد ابناء القرية كانت تنتظر الامتلاء قبل ان تتجه الى نابلس عبر طريق جبلي وعر جعل ركابها يتقافزون فيما كانت رؤوسهم تصطدم بسقفها طوال الطريق.

وبينما كان السائق يحرك مؤشر الراديو، طلب عمر من السائق على نحو مباغت ان يوقفه لسماع خبر عابر في نشرة اخبار ذكره بالاجتماع الذي ضمه قبل يومين مع المفوض السياسي بينما كان صوت المذيع يقول:

– اختار الألمان الشرقيون بغالبية عظمى اليوم الأحزاب التي كانت تطالب بانضمام سريع لألمانيا الشرقية إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية.

وعندما حاول ان يجعل من الخبر مادة للنقاش بين الركاب لم يكترث به احد الا واحد عقب ساخرا:

– "ناقصنا المانيا!! يا اخي بيكفينا اللي فينا.. انا نازل نابلس لاشوف اذا بعرف ادبر إشي للاولاد".

لكن عمر اصر على مواصلة النقاش قائلا:

• ما يحدث في المانيا يهمنا بالتاكيد.. هذه ضربة جديدة للاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي، وهم الوحيدون الذين يدعموننا الان.

فقاطعه السائق:

– "ويعني بالله عليك.. شو اللي عمله المعسكر الاشتراكي لليوم؟.. اليهود محتلين الضفة من 23 سنة .. ومن قبلها فلسطين من 42 سنة.. حدا من المعسكر الاشتراكي زحزحهم متر؟"

واستأنف ساخرا:

– "وجاي تحكي لي عن المانيا؟؟"

وحاول عمر تكرار المحاولة قائلا:

• "كنت عاوزهم ييجوا يحاربوا بدالنا؟ ولا بدال العرب؟ لكن لولا دعم المعسكر الاشتراكي وتسليحه للمنظمة ما كان توفرت لنا ظروف أفضل للانتفاضة"

ولم يرد عليه احد من الركاب هذه المرة، فادرك ان الاعباء التي خلفتها الانتفاضة كانت ايضا ثقيلة على الناس.. وهو نفسه يعاني من ذلك كطالب.. اذ قلما بات ينتظم في مدرسته ليوم دراسي كامل، وفي بعض المدن والقرى هناك الكثير من المدارس المغلقة منذ اكثر من عام باوامر عسكرية من الاحتلال.. وهناك من تطوع من المدرسين لتدريس تلاميذهم في الهواء الطلق تحت الاشجار.. وهذه نقطة رأى انها تستحق ان تعرض في التقرير الذي سيكتبه.. لان الامور ان ساءت عن هذا الحد فان مستويات التعليم ستنحدر.. فالاضرابات كثيرة .. والمواصلات صعبة.. والاهالي يخافون على ابنائهم نتيجة الاغلاق المستمر للطرق.. وهناك تشتت واضح في التعليم ولا بد من التفكير في علاج مسألة التعليم، وهذا ما قرر ان يتعرض له بتفصيل اكثر في فقرة اساسية من تقريره المنتظر.

وفيما ظل السائق يحرك مؤشر الراديو من محطة الى اخرى يبث معظمها اناشيد واغان وطنية من محطات ظهر بعضها ابان الانتفاضة من غرف في البيوت.. وصلت السيارة اخيرا الى "الدوار"، فطلب عمر من سائقها انزاله بجانب معمل الطحينية القديم... ومن هناك اتجه شرقا سيرا على قدميه باتجاه شارع رفيديا مرورا بمكتبة البلدية العريقة.. وما ان تخطى ذلك "الدرج" الصغير في مدخل "المنتزة" لمسافة قصيرة وهو يبحث عن حسام حتى اخذته المفاجأة على حين غرة .. وبصورة لم تخطر

له على بال.

فعلى احدى الطاولات المنزوية التي تظللها اشجار المنتزة.. كان حسام جالسا وامامه على الكرسي المقابل ابنة اخيه ولاء.

وما ان التقت عينيه بعينيها كالمرة الاولى حتى اصابه ارتباك شديد حاول ان يخفيه على الفور كي لا يلاحظه حسام الذي اشار بيده نحو كرسي في الوسط داعيا عمر للجلوس عليه.

وربما اسعفه ذلك.. فقد كان عمر ما زال يهتز في داخله.. وكان ما زال مندهشا من سر وجود ولاء في اجتماع لمهمة تنظيمية اعتقد ان شخصا آخر سوف يحضر اليه من بعده.. لكن حسام سرعان ما بدد الدهشة التي ارتسمت على وجه عمر وهو ينظر نحوه مستغربا عندما قال وهو يشير بيده نحوها:

– اعرفك على ابنة اخي.. ولاء..

ولم يجرؤ عمر على النظر اليها مرة اخرى ... بل ظل مواربا بجسمه نحو حسام محاولا اخفاء انه رآها من قبل.. وان صورتها لا تفارق خياله منذ ثلاثة ايام.. وانه كان يتحين اية فرصة لمجرد ان يذكر اسمها امام حسام لمعرفة حكايتها... فكيف وهي جالسة الآن بجواره ويكاد يحصي انفاسها وهي تقرب كأس العصير من شفتيها الرقيقتين، ورائحة من عطر خفيف يفوح من جسمها ليعبق في ارجاء المكان.

ثم اكمل حسام:

• ولاء ليست عنصرا في التنظيم.. ولكن لا احد من التنظيم يعرف الحكاية غير فارس، وهو الذي طلب مني ومنك ان تساعدني كي نحصنها.

• نحصنها؟

تساءل عمر في قرارة نفسه.. فكلمة التحصين لها علاقة بمقاومة العملاء و " الشاباك " .. فهل جندوها وهربت؟

لكن حسام تدخل موضحا من جديد بصوت خافت كي لا يكون مسموعا من احد العابرين بلا انقطاع من جانب الطاولة مع انه احسن اختيارها في ركن بعيد عن احد الممرات:

• سوف اتحدث بصفة تنظيمية ولست بصفتي خالها.. فولاء كما ترى شابة.. والحكاية ان والدها تورط مع "الشاباك" واسقط معه والدتها.. وقد راح في الفترة الاخيرة يضغط عليها كي يسقطها هي الاخرى، لكنها ظلت تقاوم حتى حدث ما فاق قدرتها على الاحتمال اكثر عندما رأت والدها يحضر رجالا ويدخلهم الى الغرفة مع والدتها ويغادر المنزل.. فهربت، وهي لا تريد العودة مهما كان الثمن.

وفي تلك اللحظة لم يدر عمر كيف استدارت عينيه نحو ولاء ليراها تطالعه من طرف عين تسترق النظر اليه باستياء واستحياء من رأس مال قليلا نحو سطح الطاولة وكأنها ما كانت تود ان يعلم بهذا الموضوع احد.

ثم عاد بنظره الى حسام الذي تابع قائلا:

• لم يعرف احد من اخوتي بعد بموضوع شقيقتي والرجال.. فقد اتفقت مع ولاء على اخفاء هذه المعلومة عنهم.. لكنهم يعرفون بقصة التورط مع "الشاباك".. وهم مترددون في موضوع عودتها.. لكنني عندما عرضت الامر على فارس رأى ان نبعدها عن بيتنا معظم الوقت لتظل برفقة اختك في هذه الفترة حتى نخفف الملاسنة في البيت ونحميها.. ثم نجد لها حلاً... وقد رأيت ان نلتقي هنا لاعرفك بها ونرتب الامور.

لحظتها لم يجد عمر بداً من ذكر ما روته والدته عن مسألة الهروب، وكيف ان والديه يعتقدان بان في الامر ما قد يمس الشرف نظرا لتكتم زوجات اخوالها على الحقيقة.. وقال لحسام:

– قبل ان تدخل البيت يجب ان نوجد تفسيرا مقبولا.. فعلاقة ولاء ستكون مع اختي..

ورد حسام:

• نعم.. فكرت في الامر.. واتفقت مع ولاء على ان تقول شيئا واحدا ان اضطرتها الظروف لذلك وهو ان والديها يضغطان عليها للزواج من شخص مشكوك في انه عميل. وقد هربت لهذا السبب لأنهم مصرون على تزويجها اياه..

ثم توجه الى ولاء:

• اليس كذلك يا ولاء؟

واكتفت ولاء من من مكانها بهز رأسها علامة الموافقة..

ورأى عمر في هذا المخرج مدخلا مقنعا قال انه سيبلغ به اهله في الليل.. وانه سيقول لهم بانه عرف الحكاية من حسام.. وهو يعرف ان والده شهم في مثل هذه الامور.. وانه قد يوفر لها الحماية ايضا طالما ان في المسألة اجباراً على الزواج من خائن.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل التاسع

رسالة حب

بعد اسبوعين من لقائه بها بحضور خالها في نابلس، اصبحت ولاء مثل فرد من اسرة عمر.. فما عادت تغادر البيت الذي تأتيه صباحا الا في ساعة متأخرة من المساء عندما يمر حسام لاخذها الى بيتهم.. وحجتها في ذلك امام اخوالها انها مستمتعة بصحبة شقيقة عمر، وحكايات والدته التي لا تنتهي، وغياب والده في فلاحة الارض معظم ساعات النهار.. وتواجد عمر معظم الوقت خارج المنزل بصحبة خالها حسام.

ورغم ان الاحداث التي تلاحقت دفعت بالانتفاضة في نهاية الاسبوعين الى التوهج في الشارع، الا ان انتفاضة اخرى من نوع عاطفي كانت تزداد اشتعالا في صدر عمر، فرغم انه ظل حريصا على ان يعاملها باحترام بالغ

obeikandl.com

وبشكل رسمي داخل البيت، الا ان عمر كان مندفعا بكل احاسيسه ومشاعره ومن دون ان توقفه قوة نحو ولاء، والتي وصلتها مشاعره الفياضة من نظرة عينيه اليها في نفس اليوم الذي التقيا فيه في المتنزه والذي جعلها تشيح بوجهها من قوة ما أثرت فيها تلك المشاعر وجعلت قلبها يخفق في مكانه الى درجة كاد فيها كوب العصير ان يندلق من يدها.

فبعد اربعة ايام من ذلك اللقاء في المتنزه، امتلأت الشوارع بالمظاهرات الغاضبة بعد مشروع قرار مستفز قدمه الكونجرس الامريكي باعتبار القدس عاصمة لاسرائيل.

وفي اليوم نفسه تصاعد التوتر من جهة العراق عندما اغتال عملاء إسرائيليون العالم الكندي امريكي الاصل جيرالد فانسان بول الذي صمم المدفع العراقي العملاق "بابل" في بلجيكا.

وبعدها بستة ايام اعلنت الجمارك البريطانية عن ضبط 40 جهاز كريترون امريكي الصنع تستخدم في تركيب القنابل النووية كانت في طريقها الى العراق.

وفي نهاية مارس انضمت استونيا لقائمة الدول التي راحت تستقل تباعا عن الاتحاد السوفياتي كما توقع المفوض السياسي في التنظيم.

لكن ما صعد المواجهات بقوة في ذلك اليوم هو احياء الذكرى الرابعة عشرة ليوم الارض.

فقد تناغمت كل الارض الفلسطينية في ذلك اليوم بنفس الهتافات والادوات.. شعب واحد كان يصرخ بين أكثر من 200 مليون فرد رفعوا اعلام فلسطين في 141 دولة مناديا الحرية والاستقلال.. فيما راح الاسرائيليون يعبئون ماكنة سياسية لتحويل الانظار نحو خطر قادم من العراق، فاطلقوا في اليوم نفسه تهديدا بضرب بغداد اذا احسوا بانها اقتربت من انتاج الاسلحة النووية. وهو التهديد الذي رد عليه رئيس العراق صدام حسين بعد ثلاثة ايام بحرق نصف اسرائيل بالكيماوي المزدوج اذا اقدمت على ضرب العراق.

وقامت الدنيا ولم تقعد بعد تهديدات صدام.. واشتدت الاوضاع سخونة

على الارض.. فقد جاءت تهديدات صدام مثل وقود الهب جذوة الانتفاضة.. فرفعت صوره في المظاهرات ... وزاوج رماة الحجارة ومشعلي الاطارات بين العلمين العراقي والفلسطيني وهم يرفعونهما على الحواجز امام الجنود الاسرائيليين الذين كانوا يردون عليهم بالرصاص الحي والمطاطي من آليات تزنرت نوافذها واطاراتها بالشباك الواقية.

ومع سخونة الاحداث السياسية، كانت المشاعر تتدفق يوما بعد آخر بسخونة اعلى عاطفيا ولكن بصمت من عمر كلما رأى ولاء..

فقد كبرت في نظره بموقفها الشجاع.. وقرارها الصائب في الهروب.. كما اعجبه ذكائها المتقد.. ولمس ثقافتها العالية في كل مرة كان يجد فيها فرصة للحوار ولو كان قصيرا..

وفي النهاية اوصلته القناعة بانه لا يقدم ولا يؤخر في موضوع تحصينها.. فهي محصنة الى درجة انها قادرة على تحصينه هو.. وصار يعتقد بان القدر هو الذي دفعها الى طريقه ليتعلم معها لغة الحب التي لم يتعلمها ابدا من قبل وهو منشغل بتحقيق احلامه في ان يكون بطلا لقصة كفاح وطنية .. لا عاطفية.

وهي كذلك.. فقد وجدت في عمر منذ لقائها به مع خالها طريقا للخلاص مما هربت منه.. وأولته اهتماما لم تستطع اخفاءه امام شقيقته وهي تكثر في السؤال عنه.. او عندما كانت تعبر لها عن اعجابها بحماسته الوطنية وبطريقته في التفكير.. وشعورها الغريب بالراحة والاطمئنان كلما تحدثت اليه.

وقد لاحظ عمر انها تكثر في تقليب الكتب التي يحفظها في غرفته عندما لا يكون موجودا.. وعرف ذلك من شقيقته التي ابلغته ذات مرة انهما غالبا ما تقضيان وقتهما في تلك الغرفة عندما لا يكون موجودا في البيت..

كما ابلغته في مرة اخرى ان ولاء تحب الاستلقاء احيانا على سريره عندما تقرأ.. فراح يشم في كل ليلة الوسادة واللحاف عساها تكون تركت شيئا من رائحتها عليهما..

وقبل ايام من تهديد صدام بحرق نصف اسرائيل حاول ان يفاتحها باي طريقة بما كان يشتعل في صدره وما لم يكن قادرا على البوح به .. لكنه

لم يجد جرأة لذلك.. فقد كان يرى ان الاولوية في العلاقة معها هي للمهمة المطلوبة منه.. اما الحب، فكأنما هو شيء قد حجب عنه طالما انه يناضل من اجل هدف اسمى.

لكنه تحت وطاة التفكير الذي ما كان ليتوقف بها، وجد الشجاعة اخيرا بطريقة يختبر فيها ردة فعلها على تلك المشاعر الجياشة التي تعصف بداخله..

وكانت الفكرة بسيطة.

فبعد يومين، وبينما راحت ولاء تقلب كتابا لم تصل يدها اليه بعد، سقطت ورقة كان يبدو انها كتبت للتو، فاعادتها الى مكانها.. لكنها بدافع الفضول عادت اليها مرة اخرى بعدما خرجت شقيقة عمر من الغرفة، وما ان فتحتها حتى عرفت بانها رسالة موجهة اليها رغم انها ما كانت تحمل اسما ولا شيء واضحا يشير الى ما كتبت من اجله..او لمن هي مرسلة اليه..

فقد كتب يقول:

" حين التقت العيون اول مرة خفق القلب..

وفي الثانية ارتعش الجسد..

كم هو قوي هذا الحب الذي يجرفني كالاعصار..

حب جمّل حياتي..

وجعل كل ايامي مذ رأيتك ملأى بالحب..

وانا العاشق الذي لم اعرف الحب يوما..

اسائل نفسي .. فتحدثني نفسي:

لا بأس ان تحاور نفسك.. ولا بأس ان تجيب على نفسك.. ولكن عندما لا تجد الاجابة، فقد يأخذك الطوفان الى هلاك".

وكاد عمر ان يطير فرحا في تلك الليلة التي عرف فيها ان رسالته انفتحت امامها.. لكنه شعر بقلق وخوف عميقين ايضا.. فقد انتقلت الرسالة من مكانها الذي علمه بين صفحتين في ثلثه الاول الى صفحتين في مقدمة الكتاب، وعندما قربها من انفه اشتم نفس رائحة العطر الخفيف الذي عبق في "المتنزه" والذي كان ما زال عالقا من اثر اصابعها.

ورغم ان الرسالة اعيدت الى مكان آخر بين صفحات الكتاب كما تركها تماما بنفس الشكل الذي طويت فيه، الا انه لم يلحظ اية اشارة او علامة تشير الى شيء ينبىء عن خطوتها التالية .. لذا امضى الليل حتى غفا وهو يفكر في التوقعات والاحتمالات..

وفي اليوم التالي خاب امل عمر.. وكذلك في الايام الثلاثة التي تلته والتي لم يشاهد فيها ولاء في المنزل ابدا اثناء وجوده فيه رغم انها كانت تأتي اليه كالعادة كما كان يعرف من اخته.. اذا كلما كان يعود لتقليب صفحات الكتاب نفسه في الليل، لم يكن يجد بينها شيئا جديدا.. وفي الليلة الثالثة، لم يترك كتابا على رفوف مكتبته الصغيرة دون ان يقلبه صفحة صفحة.. وعندما استبد به القلق اكثر.. راح يبحث عن شيء ربما تكون قد تركته تحت الوسادة او اللحاف.. او ربما تحت بعض الاواني الموجودة في غرفته .. او تكون اخفت شيئا بداخلها.. لكنه عبثا كان يحاول.

وعندما جلس لنفسه اخيرا راح يأكله ندم التسرع.. فهي وان لم تكن تفكر فيه بالطريقة التي كان يفكر فيها.. او تبادله ما كان يتمنى.. لكنه ما كان يريد ان يسقط في امتحان فارس ايضا.. ولذلك قرر ان يواجهها في اول فرصة تالية سيراها في المنزل ليستعيد ثقتها به كمكلف من اجل المهمة المتعلقة بها فقط.. وان يغفل موضوع الرسالة.. معزيا نفسه بانه لم يخطىء عندما تركها مكتوبة مثل خاطرة دون ان تشير الى ان احدا ما هو المقصود بها بعينه.

لكن المفاجأة وقعت عليه كالزلزال عندما التقاها..

فقد كان ما زال في غرفته متعمدا انتظار وصولها كما تفعل كل صباح، وقد ابلغ اخته بعيدا عن مسامع الباقين بانه يريد ان تدخلها الى الغرفة ثم تخرج هي منها باي عذر حالما تصل.. وعندما وقفا وجها لوجه بعدما نهض لتحيتها.. هزه الارتباك من جديد.. لكنه ظل متماسكا وهو يتراجع للخلف بقدمين مرتعشتين ناحية السرير ليجلس على طرفه.. فيما ظلت هي واقفة في مكانها خافضة الرأس مثل حائرة.

ثم راح يبحث عن مدخل لاي حديث يبدد السكون الذي اطبق في الغرفة..

وبعد تردد قال:

• هناك موضوع اردت ان احدثك فيه..

وكان يوحي انه يقصد الحديث في موضوع تحصينها..

لكنها فاجأته بالرد وهي ترفع رأسها لتتلاقي العيون ثابتة هذه المرة:

– موضوع الرسالة؟

وحاول عمر ان يخفي حالة الارتباك التي عاودته مرة اخرى، فسألها متظاهرا بانه لا يفهم ما كانت تعنيه:

• اية رسالة؟

فردت وهي ترسم ابتسامة نفثت موجات من الفرح في مكنون اعماقه:

– الرسالة التي تركتها بين الصفحتين 18 و19 وتركتها لك بين الصفحتين 4 و5..

واستأنفت قائلة:

• كنت اظنك اذكى من ذلك.

وللوهلة الاولى لم يفهم عمر لماذا نعتته ولاء بالغباء.. لكنه سرعان ما طابق الرقم 18 باليوم الذي التقاها مع خالها حسام في المنتزه.. والرقم 5 بالخامس من ابريل، وهو اليوم الذي عرف فيه انها قرأت تلك الرسالة، فادرك لحظتها انها ردت عليه في اليوم نفسه الذي وقعت فيه الرسالة بين اصابعها من دون ان تكتب شيئا، ومن دون ان يفكر بانها ستكون دقيقة في ردها بالطريقة نفسها التي استخدمها الى هذا الحد.

وبعد صمت عاد يطبق على الغرفة للحظات بينما هو متسمر في مكانه وهي واقفة قبالته.. نهض عمر تتقدمه يده المرتجفة نحو يدها اليمنى التي استقبلتها بدفء، وانشدت عليها فيما كانت العيون تغوصان في العيون، والقلوب تخفق.. والشفاه تكادان ان تقتربا لولا دخول اخت عمر في تلك اللحظة.. فسحب يده وخرج مسرعا من الغرفة.

وفي عصر ذلك اليوم قبل ان يعود الى منزله.. التقاه حسام ليبلغه بان فارس يريد ان يراه في نفس الليلة على عجل، وحدد له مكانا ليذهب اليه وينتظر ملثمين ليقودونه الى المكان.

الفصل العاشر

اختفاء في مغارة

كان الظلام قد غطى الطريق الوعر المؤدي الى مغارة تحيط بها الصخور من كل جانب تقريبا، وقد اخذ عدد من الملثمين اماكنهم حولها يراقبون بشكل خاص شارع عمّان من بعيد في منطقة تتوسط الطريق بين مدينة نابلس والجفتلك في الغور محاولين قدر الامكان تمييز السيارات والشاحنات العابرة.

وداخل المغارة التي كانت تضيئها شمعة بنور خافت، تحلق اربعة من المطاردين في دائرة وبيد احدهم راديو ترانسيستور بحجم اليد كان يبث نشرة اخبار سمع منها عمر لدى دخوله في تلك الليلة خبرا عن الاعداد لاعلان وحدوي قريب بين شطري اليمن، وآخر عن اتفاق أمريكي –

obeikandl.com

سوفيتي على تدمير ثمانية في المائة من مخزون الأسلحة الكيماوية، وثالث عن اجتماعات بدأت بين مسؤولين في الالمانيتين حول خطوات للبدء بتوحيد العملة والاقتصاد تمهيدا لتوحيد الشطرين الشرقي والغربي من الدولة التي قسمتها الحرب العالمية الثانية.

ومن العراق خبر عن زيارة وفد من الكونجرس الامريكي في اليوم التالي الى بغداد برئاسة السيناتور روبرت دول بعد التوتر الذي احدثته تهديدات صدام بحرق نصف اسرائيل بالكيماوي المزدوج.

وكان وسط المطاردين فارس... رجل بلغ الاربعين، لكن ملامحه كانت توحي بانه ما زال من جيل الشباب: اسمر بملامح صارمة.. يلكز نتيجة اصابة في ساقه اثناء عملية لكنه لا يستعمل عصا.. وبنيته قوية.. وهو متزوج، وله ثلاثة اولاد وبنت اكبرهم فراس الذي بلغ من العمر 10 سنوات.

عايش فارس هزيمة حزيران 1967، وقبل ان يمضي عام على الاحتلال، ضمه سجن نابلس المركزي مع مجموعة من نحو 30 فتى لم يبلغوا العشرين من اعمارهم بعد .. لكنهم شكلوا تنظيما عفوياً مقاوماً نشط بشكل خاص في مخيم بلاطة الذي انشيء كفلسطين مصغرة جنوب غرب المدينة من لاجئي مدن يافا وحيفا وكفرسابا وقاقون ومسكة ويازور وبيت دجن والطيرة واللد وطيرة دندن والطيبة وقلنسوة والرملة وعرب ابو كشك وابو شوشة والمجدل وكفر قاسم وبير السبع والعباسية والخيرية والخالصة وعكا وزكريا وكفر عانا والجماسين والحشاشين والقرعان عام 1948، وعرفوا باسم "الكف الاسود".

ومع ان هذه الجماعة لم تكن مسلحة، وكانت تضم طلاباً معظمهم في المرحلة الاعدادية، الا انها ازعجت سلطات الاحتلال بطرقها البدائية في المقاومة قبل ان يمر العام الاول من احتلال الضفة الغربية.. كتوزيع المنشورات التي تحض على الاضرابات والتي كانت تختم بنصف حبة بطاطا محفور عليها اسم "الكف الاسود".. واخراج المظاهرات من مدرستي الذكور والاناث الاعداديتين، والتي غالبا ما كانت تشتبك مع قوات

الاحتلال قبالة "دير بئر يعقوب" بعد ان يغلقوا الشارع بالاسلاك الشائكة والاطارات المحترقة لمنع الجنود الاسرائيليين من اقتحام الشارع نحوهم بالسيارات العسكرية، او غرس المسامير تحت اطارات حافلات شركة "ايجد" التي كانت تاتي لتنقل العمال فجر كل يوم من شارع القدس، او محاولات احراقها بقنابل المولوتوف.

وقد اتسعت هذه المجموعة قبل اعتقالها لتشمل طلابا آخرين من نابلس والقرى التابعة لها مثل روجيب وسالم وبورين وحوارة وبيتا وعصيرة الشمالية ومخيم عسكر..

والى جوار فارس، جلس اربعة قياديين آخرين من التنظيم وامامهم عمر..

وعندما سأله فارس ان كان فكر في السبب الذي جعلهم يستدعونه الى تلك المغارة على هذا النحو ادرك ان المهمة ستكون كبيرة هذه المرة، وكان عليه ان يصغي جيدا لكل ما يقال، وان يكون على استعداد لتنفيذ ما سيطلب منه حتى لو تطلب الامر استشهاده.

فرد قائلا:

• كلا.. ولكني رهن الاشارة، ومستعد لكل شيء.

فاكمل فارس:

– المهمة هذه المرة ستكون صعبة، تتطلب جرأة وتحملا وصبرا وذكاء. وقد اخترناك لاعتقادنا بانك قد تكون الانسب، ولكننا سنمنحك الفرصة للتفكير فيها ايضا.

ورد عمر:

• وما المطلوب بالضبط؟

واردف فارس:

– وصلتنا معلومات من معتقل عسقلان عن شبكة عملاء، والشك يدور حول من يرأسها.. وهو من احد اقاربك.

ودارت عيني عمر في محجريها وهو يواصل الاستماع الى فارس:

– ربما تكون المعلومات مضللة او بدافع الانتقام.. لا ندري بعد..

لكننا نريد التأكد اولا من هذا الامر، وان صح ذلك، نريد توظيفه لمصلحة التنظيم.

ورد عمر:

• ومن هو ذلك القريب؟

وعلت الدهشة وجهه وهو يسمع الاسم:

– شعبان

وشعبان هو ابن عم عمر.. ورغم ان زوجة فارس كانت قد ابلغته ذات مرة انه غالبا ما يكون في شرفة منزله يتحدث بالهاتف عندما يكون احد المطاردين في القرية، الا ان المعروف عن شعبان بين الجميع انه شخصية وطنية، لا يتوانى عن تقديم الخدمات والمساعدة لمن يقصده.. كما انه نادرا ما كان يغيب عن مناسبة فرح او عزاء في اي بيت.. وكان احد الساعين لانشاء ناد اجتماعي للشباب في القرية بعد ان كبرت.. وكان البعض يرى في تكتمه عند الحديث عن التنظيم امرا خاصا به، وبالسرية المطلوبة في العمل الوطني.

ورغم الذكاء والكتمان الذي يتميز به عمر بين اقرانه في التنظيم .. فانه لم يلاحظ ابدا اية حركة مشبوهة او عمل مريب قام به شعبان أو اثار ادنى شك فيه لديه..

لكنه لا يستطيع التشكيك بما يقوله فارس ايضا.. فطالما ان المعلومات وردت من المعتقل، فلا بد ان لهذه الحكاية بداية هناك..

كما ان فارس بالنسبة له قدوة في العمل النضالي.. وكثيرا ما كان يشبهه بـ"جيفارا غزة"، واضافة لذلك، فانه كان المسؤول المباشر عن عمله مع حسام في الوسط الطلابي، وكان يرى في العلاقة معه طريقا للوصول الى حلمه في ان يذكره التاريخ بطلا شجاعا.

وتدخل احد القياديين الاربعة قائلا:

– لا نريد كشف الشبكة فقط، هدفنا اختراق "الشاباك" ايضا.

وتدخل آخر قائلا:

– رأينا ان تنفذ الى الشبكة من خلال شعبان بان تستمر معه وان ثبتت

عليه الخيانة، وانت ابن عمه.

وكان عمر صامتا يستمع، بينما عاد فارس للحديث:

– ولكن قبل ذلك، يجب ان تعرف بان ثمن هذه التضحية قد يكون باهظا.. فقد اعددنا خطة، وهي صعبة تحمل مخاطر غير متوقعة..

ولحظتها اجاب عمر في علامة على الموافقة:

• وما هي الخطة؟

ورد فارس:

– بداية، سنصدر بيانا بفصلك من التنظيم دون توضيح السبب، لكننا سنثير الاشاعات والشبهات حولك.. وقد يصطدم شباب التنظيم بك حتى تصبح صيدا لشعبان، فان تاكدت المعلومات، تواصل العمل معه، ودعه يجندك.. ولكن عليك التصرف بالحكمة في اللحظة الاخيرة قبل ان تقع في الشراك التي سينصبها لك على الطريق.. وفي حالات الضرورة القصوى، تتواصل معنا عن طريق البقال ابويوسف.

وبعد لحظة من التفكير رد عمر:

• وماذا لو انكشف امري امام شعبان وعرف بذلك؟ لا تنس انه قريبي، والمسألة حساسة من جانبها الوطني.

واجابه فارس:

– ستكون قائد المهمة، وليس غيرك من سينفذها معك.. فان كشفت، فانت السبب. وانت من يتحمل المسؤولية عن فشلك فيها.

وفي لحظة بدا لعمر ان ما يطلب منه ليس بقليل.. وعندما فكر بعمق اكبر، بدت المهمة محفوفة بمخاطر كبيرة ليس اقلها ان سمعته ستتشوه وهو الذي ظل طوال حياته محافظا على سمعة حميدة، وليس آخرها ان يمضي سنوات شبابه القادمة في معتقل وهو الذي يطمح ان يكون طبيبا بعد عدة سنوات..

وولاء ؟؟

هذا الحب الذي انفجر صباحا بعد ان كافح طويلا من اجل الوصول الى قلبها ولم ينعم بعد حتى بفرحه من انها تبادله نفس المشاعر.. كيف ستنقلب

الامور معها بهذه السرعة المفاجئة؟

لكن شيئا آخر اقوى من تفكيره بالحب دفعه لمقاطعة فارس عندما منحه فرصة للتفكير او الاعتذار عن المهمة، فرد من دون تفكير مسبق:

• بل سافعل ولو كلفني الأمر حياتي.

obeikandl.com

الفصل الحادي عشر

شراك على الطريق

لم يكن شهر ايار قد انقضى بعد..وفي أيار كما يقول الفلاحون "احمل منجلك وغار".

ففي اواخر هذا الشهر يحين وقت الحصاد، وترى القرويين مشغولين في الحقول وهم يحصدون القمح لنقله الى البيادر حيث يتم درسه وتذريته بمذار خشبية تشبه كفوف اليد باربع او خمس اصابع لعزل الغلة عن التبن المخلوط بها..

لكن حصاد عمر كان من نوع مختلف.. اذ لم تمض ايام هذا الشهر الذي اشرقت شمس الثاني والعشرين منه فوق جبال اليمن وسهوله لتعلن عن ميلاد يوم وحدوي عظيم وصفه البعض بالثورة الثالثة بعد ثورتي سبتمبر

obeikandl.com

1962 وأكتوبر 1963، حتى بدأت الخطة التي رسمها المطاردون تؤتي أكلها.. فقد صار كل شخص في القرية يعرف ان عمر قام بعمل تدور حوله التساؤلات.. ولكن ما هو ذاك العمل الذي قام به واستحق فصله من التنظيم؟ فهذا ما لم يكن يعرفه احد..

وقد ثارت وأثيرت الكثير من الشكوك والشائعات بشأن ذلك.. فمنهم من قال انه تسبب في كشف مسؤول خليته في التنظيم بمسلك خاطىء، ومنهم من صحح المعلومة بانه متعاون مع "الشاباك" وقد سلم خلية كاملة في عصيرة الشمالية.

ومع انه كان معروفا عن عمر أنه شاب خلوق رغم اعجابه الذي لا يخفيه بالشخصيات الثورية .. الا ان الشائعات التي حامت حوله جعلت منه زير نساء مراهقاً، لم يكن يترك فتاة من بنات البلدة او القرى المجاورة دون ان يتحرش بها او يحضها على الفجور.. وهناك شائعات جعلت منه سكيرا يذهب كل فترة مع عدد من الشباب الى عاهرات تل ابيب، بل انه يروج حبوب "الكبتاغون" و"الامفيثامين" باسمائها الشعبية المعروفة بين طلاب المدرسة والشباب.

وبعضهم من ربط قرار فصله بشيء ما يتعلق بواحد من افراد عائلته مع ان العديد منهم فوجئوا بانه كان عضوا في التنظيم اصلا..

وكذلك شعبان، فقد عجز هو الآخر عن معرفة السر الذي استوجب فصل عمر، مع انه كان اول من حرصوا على معرفة السبب الحقيقي.

اما الصدمة المفجعة فكانت من نصيب ولاء التي انهار كل شيء امامها في لحظة خاطفة كاللحظة التي ولد فيها الحب بينهما.. لحظة لم تجد لها تفسيرا عند أخت عمر او والدته او حتى عند خالها حسام.

وفي آخر مرة التقته فيها في منزله قبل ان يفاجئها خالها حسام بالا تذهب الى ذلك البيت ايا كان السبب او المبرر، وقف عاجزا عن الاجابة او الدفاع عن نفسه ازاء الشائعات التي تثار حوله في القرية .. وهو الذي كانت تراه شبحا لفارس احلامها البطل قبل ان تراه، وقبل ان يعصف حبه في قلبها، او عن مصارحتها بالحقيقة عندما راحت تذكره وهي تبكي بشدة

بالسبب الذي هربت من اجله لكي تفجع بمواجهة مصير مماثل معه..

وفي ذلك اليوم، كان شعبان عائدا بسيارته من نابلس حينما شاهد عمر يسير على الطريق الترابي المؤدي الى البلدة، فتوقف عارضا توصيله معه الى البيت.. لكن عمر تعمد إبداء التردد، ومع ألحاح شعبان اجابه:

– ألا تخشى ان تلوث سمعتك أنت الآخر.. لقد جعلوني كالفيروس.. لا احد يريد الاقتراب مني او التعاطي معي..

فابتسم شعبان وقال له:

• هون عليك يا عمر .. نحن اقارب.. ولو صدقنا كل ما يقال عن اي شخص في القرية لما ظل فيها احد.

ورد عمر:

– عموما .. لا يهمني ما حدث.. فانا اعرف نفسي جيدا.. وقد تجاوزت الامر.

• ولكن ما الذي حدث؟

قالها شعبان وهو يفتح باب السيارة لعمر، والذي لم يمانع في الدخول اليها والجلوس الى جانبه قائلا:

– حكاية طويلة.. ساخبرك عنها يوما ما؟

• ولماذا ليس اليوم.. هل انت مشغول؟ يمكننا الخروج من القرية ان اردت حتى نطيل المشوار.

فرد عمر:

– الى نابلس؟ لا مانع .. توكل على الله

ودار شعبان بالسيارة.. واغلق المذياع الذي كانت تصدح منه اغنية "فات الميعاد" لأم كلثوم، تاركا المجال لعمر الذي إمتزج عنده الواقع بخيال الخطة التي ينفذها كي يروي الحكاية.

لكن عمر إختار الواقع عندما طلب منه الابقاء على الاغنية، فيما راحت عيونه تلاحق الاشجار في كروم الزيتون واللوز المجاورة على الطريق، وقد انبسط تحتها فراش اخضر من العشب تبزغ من بينه ورود الحنون الاحمر التي شق بعضها الصخر.. وازهار الزعمطوط بلونيها الابيض والبنفسجي

ليبدو المشهد مثل سجادة طبيعية خلابة، ثم قال:

– لا حكاية ولا ما يحزنون.. أساسا أنا لم أكن عضوا في التنظيم.

• لم تكن عضوا؟ فلماذا فصلوك منه اذن؟

– لا اعرف.. ولكني كنت نصيرا لهم في المدرسة .. فخطهم السياسي كان يعجبني.. ولكني الآن نادم على كل لحظة عملتها من اجلهم.. "طز" في قيادة التنظيم كلها..و"طز" في فراس الذي ابلغني بقرار الفصل".

• معقول ما تقول؟ فالانصار لا تصدر قرارات بفصلهم؟

– هذا ما حصل؟

• يا عمر .. انا ابن عمك.. الا تأتمني على سرك؟ ربما اتمكن من فعل ما قد يساعدك.. تحدث ..اخبرني .. ماذا حدث؟

– صدقني لم يحدث شيء.. كنت مجرد ناشط طلابي.. وقد نفذت نفذت بعض التكليفات.. لكنها لم تكن ذات اهمية كبيرة.

• مثل ماذا؟

ورد عليه عمر مشدودا بلحظة الوجع التي لمست بها كلمات الاغنية التي تشدو بها أم كلثوم وجدانه قائلا بتذمر:

– ارجوك يا شعبان.. انا أريد ان أنسى كل شيء.. ما فعلته فعلته.. ولكنهم ما كانوا يستحقون ذلك.. لقد شوهوا سمعتي.. دعنا نستمتع بالمشوار.. ارفع الصوت قليلا على "ام كلثوم".

ثم راح يدندن مع صوت أم كلثوم وقد قفزت في ذهنه صورة ولاء هي تصدح بصوت أشجاه الالم: "تفيد بإيه يا ندم يا ندم.. وتعمل إيه يا عتاب.. طالت ليالي الألم واتفرقوا الأحباب.. وكفايه بأه تعذيب وشقى"...

أما شعبان فحاول إظهار انه لا يلح في معرفة التفاصيل في تلك اللحظة، لكنه لم يستطع، فرفع الصوت قليلا وقاطع دندنته قائلا:

• حسبما تشاء.. عموما الطريق طويلة.. ان احببت ان تفضفض فلك الخيار، واعدك بان يظل سرك في بئر.. وان لم تشأ فليكن.. فانت شاب وادرى بمصلحتك.

ومن جانبه رد عمر:

– انا اثق بك طبعا.. انت ابن عمي وتهمه مصلحتي.. والكل يعرفك في القرية ويسمع ما يقال عنك.

ورد شعبان مستوضحا:

• ماذا يقال عني؟

– عن علاقتك بالتنظيم؟

وادار وجهه نحو شعبان ليكمل متابعا:

• هل صحيح انك مسؤول كبير فيه؟

وبدرت من شعبان ابتسامة ثم سأل:

• وماذا يقال ايضا؟

ورد عمر:

– انا لا احاول معرفة هذه المسائل.. فالعمل المقاوم يحتاج الى سرية.. خاصة وان الملاحقة اصبحت شديدة ضد المطاردين منذ اعلان الاستقلال.. ولكني اسألك لانك ابن عمي..

صمت شعبان لبرهة ثم قال على نحو غطاه الغموض في الاجابة:

• يعني.. ولكن ليس الى حد مسؤول.. واظن أن فارس يعرف باني احب ان اخدم الجميع.. والعمل مع المقاومة ليس عيبا.. هذا واجب.. اليس كذلك؟

ورد عمر:

– طبعا.. ولكن عندما ينقلب الامر عليك .. ماذا تفعل؟

واجاب شعبان:

• أدافع عن نفسي ..وأقاوم ايضا .. المقاومة عمل مستمر في حياة المناضلين..

فتابع عمر:

– صدقني .. ما فعلته للتنظيم كان مشرفا لي، ولحلمي في ان أكون بطلا يشار اليه بالبنان.. ولكن ما فعله التنظيم بي كان عارا على قادته.. وعلى فارس بالتحديد.. فقد خدمته كثيرا.. ولكن الأمور اختلطت يا شعبان.. الشريف يصبح سافلا.. والسفلة يظهرون كالشرفاء احيانا في نظرهم.

وحاول شعبان اقتناص الفرصة مجددا:

• وما الذي فعلته لفارس وكان يشرفك؟

وما كان خافيا على عمر ما كان يريده منه شعبان، لكنه ظل على طبيعته وهو يرد:

– الم نتفق على ان لا نتحدث في هذا الموضوع الان.. ربما اخبرك ذات يوم بتفاصيل اكثر.. لكن صدقني .. كل ما حصل لا يستحق ان تشوه سمعتي الى هذا الحد.. كان يكفيهم ان يصدروا بيانا بالفصل ويوضحوا السبب.. اما البيان الذي اصدروه فقد جعل كل شخص يخمن باني "عملت السبعة وذمتها". ولو تعرف ما صار يحدث لي في المدرسة.. الكل يتجنبني.. حتى المدرسين زادوا من توجيه التوبيخات لي لسبب ومن دون سبب.. ولو كنت مكاني.. لشعرت بالخزي من نظرات الاحتقار التي تلاحقني من مكان الى آخر.. أتركها لله يا رجل.. "خليك على ام كثوم"..

ثم اردف متوعدا بعد صمت قصير:

– لكن والله لن اتركهم.. ساقاوم كما تقول.. وسانتقم ممن كان السبب..

وعاد ليرفع صوت المذياع قليلا ليردد مع كلثوم وهي تواصل شدوها العذب: "من ناري من طول لياليّه.. من ناري.. ناري .. ناري.. وفرحة العذال فيّا.. من قسوتك وانت حبيبي.. وقسوة الدنيا عليّا.. بيني وبينك وهجر وغدر وجرح بقلبي داريته"...

واثناء ذلك ظل شعبان صامتاً.. وفي بعض الاحيان كان يدندن مع عمر.. ومن البعيد كانت جبال مدينة نابلس تطل وقد كست احراش قممها اشجار السرو والصنوبر الخضراء.. تلك الاشجار التي كان عمر يرى فيها أبطال جبل النار وهم ينطلقون منها لمقاومة موجات الغزو الاستعماري موجة بعد اخرى..

ثم سأل:

– هل تعرف لماذا اسموها نابلس يا شعبان؟

• اعرف قصة الافعى العملاقة "لس" التي كان لها ناب ضخم طويل والذي بقي بعد نفوقها.. فسميت على اسم الناب: "ناب لس"..

openkanal.com

وقاطعه عمر:

– هذه اسطورة.. اما التاريخ فيقول ان الذي انشأ نابلس هم الكنعانيون العرب وهم الذين سموها "شكيم"، وليس كما يقول اليهود الذين يسمونها "شخيم".. وهي أول مدينة كنعانية نزل فيها سيدنا إبراهيم الخليل قادما من مدينة أور بالعراق، وبعده أتى سيدنا يعقوب من فدان آرام على نهر الفرات بالعراق.

ثم استراح معتدلا في جلسته على الكرسي وهو يتابع كأنما يقرأ من احد كتب التاريخ:

– معنى "شكيم" باللغة الكنعانية الارض المرتفعة او النجد. وقد حكمها الامير الكنعاني "لابعايو".. وعندما ازدهرت غضب عليها الرومان فدمروها مع تسع مدن اخرى عندما احتلوا بلاد الشام، والذي أمر بتدميرها هو الامبراطور تيتوس، ثم جاء الامبراطور فسبسيانوس من بعده ليأمر باعادة بنائها.. وكان من عائلة اسمها "نيابولس" فسموها "فيلافيا نيابولس"، و"فيلافي" في اللغة الرومانية تعني "الجديدة"، اي ان اسمها كان "نيابولس الجديدة" مثل "نيويورك" الامريكية التي سماها البريطانيون نسبة الى مقاطعة يورك...ومع الزمن ظل المقطع الثاني من الاسم هو الدارج وتحور على السنة الناس ليصبح "نابلس" بدلا من "نيابولس".

ورد شعبان:

• سمعت شيئا من هذا القبيل.. لكني ما كنت اعرف ان "نيابولس" هو اسم عائلة الامبرطور كما تقول، كنت اظن انه اسم مدينته التي أتى منها واصبح اسمها الان "نابولي" في ايطاليا.

وتابع عمر:

– واهلها ابطال شجعان.. قاوموا الرومان.. والبيزنطيين.. والصليبيين .. وتوالى عليهم المماليك والايوبيون والعثمانيون..

ثم اردف:

–هل تعرف ان الذي بنى المسجد الحنبلي هو المظفر الملك سليمان بن عثمان؟ وان المدرسة الفاطمية بنيت في عهد السلطان محمد رشاد؟ وان

المستشفى الوطني بني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني؟

ورد شعبان:

• كلا .. لم اكن اعرف.. كنت لا اطيق دروس التاريخ في المدرسة.

– ولكن هذا تاريخنا.. وهل تعرف ان "الطور" هو في الاساس معبدا لجوبتر اقامه الرومان على جبل جرزيم ثم صار معبدا للسامريين؟

ورد شعبان:

•هل تريد اختباري في التاريخ؟.. دعك من ذلك.. فما فائدة ذلك كله.. نحن اليوم تحتلنا اسرائيل.. وهذا هو الواقع الذي لم ار غيره منذ ان احتلت القرية مع نابلس والقدس وكل الضفة الغربية عام 1967.. كان عمري اربع سنوات فقط يومها..

ورد عمر وقد فاجأته هذه المعلومة:

– حقا؟ لم اكن اتخيل انك تكبرني بعشر سنوات..

ثم اردف:

– اليس عجيبا ألا تلاحظ فرقا في الاعمار بين ابناء شعبنا؟ صغيرنا يكبر لكبيره.. وكبيرنا يصغر لصغيره.. كأن الشعب كله يظل شابا لا يشيخ..

obeikandl.com

الفصل الثاني عشر

شوار إلى تل أبيب

مرت ذكرى الخامس من حزيران في ذلك العام وهي تحمل آمالا جديدة سرعان ما تبددت في نفس الشهر.. فشامير عاد الى السلطة بحكومة اختارها من سبعة احزاب دينية متطرفة رفضت خطط السلام مع الفلسطينيين.. والرئيس الامريكي جورج بوش الأب اوقف الحوار مع منظمة التحرير الذي دام سنتين بعد ان رفض رئيسها ياسر عرفات إدانة عملية هاجمت فيها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– القيادة العامة الشواطيء الإسرائيلية.

وفي روسيا ظهرت بوادر لتحرك استقلالي أعلنت خلاله السيادة في روسيا بعد نحو شهر من انضمام لاتفيا لقائمة الدول التي استقلت عن

obeikandl.com

الاتحاد السوفياتي، ثم تبعتها اوزبكستان فملدوفيا في اجراءات مماثلة.

وكان التوتر يزداد حدة بين العراق ودول الخليج حول انتاج النفط وأسعاره من جهة.. وبين العراق واسرائيل مع دخول الأميركيين على الخط بادعاء أن العراق سيكون قادراً على إنتاج أول قنبلة ذرية خلال فترة تتراوح بين سنتين وخمس سنوات، وانضمام الاوروبيين الى الحملة المعادية التي اطلقتها اسرائيل ضد بغداد.

ومن عادة الفلاحين الذين ما زالوا منشغلين في حصاد القمح وبذاره ان يقولوا عن شهر حزيران "خلى الأقرع حيران" أو "ضاق الوقت عالسهران"..

وكان الاقرع شعبان.. والسهران عمر..

وفي احد الايام التي كان العالم منشغلا فيها بنهائيات كأس العالم في ايطاليا، كان شعبان عابرا بسيارته عندما رأى مجموعة من الملثمين وهم يوسعون عمر ضرباً في سوق القرية في ساعات الصباح.. فتوقف ليتدخل في ابعادهم عنه.. وعندما سأل عما يجري قالوا له انه كان يشتم قادة التنظيم، وأن البعض رأوه وهو يمزق صور قادته الملصقة على أعمدة الانارة وجدران الحوانيت.. وبعدما نجح في تخليصه من بين أيديهم، راح قائد الملثمين يهدد عمر بانهم قد "يطخونه" في الشارع مرة اخرى ان كرر ما فعل .. او إن لم يكف عن شتم التنظيم، او حتى لو تناهي اليهم انه ما زال يشتم احدا منهم .. خاصة فراس الذي المحوا الى انه هو الذي ارسلهم لتأديب عمر.

وما ان دخل كليهما الى السيارة حتى قال عمر غاضباً وهو يمسح بقعة من الدم أسفل عينه من ضربة بعقب بندقية، ويتفقد الرضوض في ذراعيه وساقيه وكتفيه:

• لقد كرهت هذا المكان.. كرهت الجميع.. هل تبعدني من هنا؟

ورد شعبان:

– هوّن عليك..

وتحرك بالسيارة أولا من دون هدف حتى وصلا الى مشارف نابلس

وهو يستمع الى رواية عمر عما حصل، وعند مفترق يؤدي الى طولكرم سأله:

• ما رأيك ان نكمل الى ناتانيا؟ يمكننا الذهاب الى شاطيء البحر حتى المساء ثم نعود.

ولم يبد عمر أي اعتراض.. ولم يكن يهمه الى أين يتجهان.. كل ما كان يريده كما قال لشعبان:

• أريد ان يهدأ الدم الذي فار في جسمي..

ثم أجهش في البكاء.

وعندما سأله شعبان عن سبب ذلك قال:

– أقسم بالله اني لم اؤذي احدا منهم..صحيح اني شتمت.. ولكن ما الذي كانوا ينتظرونه من ردة فعلي بعدما صارت سمعتي في الحضيض؟ ولولاك.. فربما كنت قد هلكت بين أيديهم اليوم.. كانوا متوحشين وهم يتقاذفونني مثل كرة كأس العالم..وكما لو اني عدوهم أو عميلا لاسرائيل.

ولم يعلق شعبان الذي راح يواصل تهدئته وهو يقول:

• تمتع بمناظر الطبيعة الآن حتى نصل.. بعد اقل من ساعة ستنسيك سيقان اليهوديات العاريات وصدورهن النافرة نفسك على الشاطيء... ومن يدري بعدها؟؟

ورمقه عمر بنظرة تساؤل، فتابع شعبان:

• من يدري.. ربما نصادف ما هو أجمل من ذلك.

فرد عليه عمر:

– كلا يا شعبان.. صحيح أنهم شوهوا سمعتي.. ولكن ما ترمي اليه ليس من طبعي ابدا.

واجابه شعبان:

• ومن قال بأني سأغير من طبعك.. نحن ذاهبون لمجرد النزهة فقط.

ووافقه عمر على ذلك قائلا:

– نعم.. للنزهة فقط.

لكن لم يمض وقت طويل حتى سأله شعبان:

• هل تريد اقناعي بانك لم تختبر نفسك مع احداهن حتى الآن؟

وبدا السؤال غريبا على عمر الذي رد على الفور:

– كلا .. ابداً

ففاجأه شعبان:

• وولاء.. ماذا كانت تفعل عندكم طوال النهار؟ هناك من يقول بأنها وراء سبب فصلك من التنظيم؟

وطالعه عمر بنظرة استغراب وحيرة من ذكر اسم ولاء على هذا النحو المباغت.. ثم سأله:

– وما علاقة ولاء؟

ورد شعبان بصورة أراد منها الوصول الى معلومة ما عن سبب تردد ولاء الدائم على بيت عمر:

• سمعت انها اشتكت لخالها حسام منك، وهو الذي ابلغ التنظيم عنك، ولهذا فصلوك لأنك حاولت معها.. صحيح؟

ورد عمر محاولاً إبعاد اي ذكر لولاء من الحوار:

– لا ..هذا غير صحيح.. ولاء صديقة لاختي وكانت تظل معها في البيت مع والدتي.. ولعلمك.. فليس لولاء أية علاقة بموضوع فصلي، ولو كان ذلك صحيحا.. هل كنت تعتقد بان بقية اخوالها كانوا سيتركونني؟ كانوا ذبحوني.. أنت تعرف ما قيمة الشرف عند هؤلاء الناس..

وبدا شعبان مقتنعا برد عمر، لكنه سرعان ما حاول استدراجه ثانية لموضوع البنات قائلا:

• ولكنك شاب؟ هل تريد اقناعي بانك لم تفكر في هذا الموضوع حتى الان؟

ورد عمر:

– كل شاب يفكر بالتأكيد.. لكنك تعرف في أي مجتمع نحن نعيش؟ فلمجرد إشاعات كلها كاذبة ها انت ترى ما الذي يحصل.. فكيف لو كان الامر حقيقة؟

وأجابه شعبان:

• وهل يجب ان تظهر هذه الحقيقة في القرية؟.. هناك أماكن اخرى لا يضبطك فيها أحد.. انا اعرف شبابا يذهبون مرة كل اسبوع او اسبوعين الى تل ابيب لهذا الغرض.. ولا احد يعرف بامرهم.

ورد عمر:

– ولكني لست مثل هؤلاء.. لم افكر بهذا الموضوع من قبل.. ولست على استعداد للتفكير فيه الآن.. ما فائدة ان أستمتع لساعة في تل ابيب ثم أعود منها مصابا بالايدز وأقضي على شبابي؟ ألم تسمع بذلك؟

فرد شعبان:

• صحيح.. ولكن ليس بالضرورة ان تمارس ذلك مع عاهرات.. هناك يهوديات مستعدات للصداقة مع العرب. وبعضهن تزوجن من عرب.

ورد عمر:

* نعم.. وانا أعرف شخصا تزوج من يهودية من علاقة حب، لكنهما لم يستطيعا العيش في الضفة.. فانتقلا الى القدس.

وأكمل شعبان:

– أنا اعرف صديقة يهودية أزورها في منزلها في "رامات جان".. يمكننا الذهاب اليها اليوم أن اردت..وقد تتعرف على أحدى صديقاتها.

ورد عمر:

• كيف؟ ومن أين أضمن انها ليست من إحدى العاهرات؟

ورد شعبان واثقا:

– كلا.. انا اعرف هذه الصديقة منذ اربع سنوات .. التقيت بها صدفة في احد المحلات في قلقيلية.. وهي تعمل في مصنع للعصائر.

وقبل ان يصلا الى ناتانيا، كان شعبان قد نجح في اقناع عمر ليكملا الرحلة الى تل ابيب.. بل ولم يبدر من عمر اي استياء وهما يمضيان الوقت بالتسكع في شارع "ديزينجوف" ثم الانتظار امام شقة تلك الصديقة لحين عودتها من عملها.. لكن ما ان شارف الوقت على الخامسة مساء حتى قال عمر:

• فلنعد الآن.. يمكننا ان نأتي في يوم آخر.

obeikandl.com

ورغم تماسكه في ابداء ردة الفعل، الا ان شعبان لم يتمكن من اخفاء انفعاله وهو يكاد يصرخ في وجهه:

– ماذا؟ منذ الظهيرة ونحن "نلف" في تل ابيب، وتطلب العودة الان بعد ان اوشكت صديقتي على الوصول؟

ورد عمر:

• لقد تأخرنا.. وان مكثنا ساعة او ساعتين فسوف نعود متأخرين.. ولا بد ان أهلي عرفوا ما حدث لي في الصباح.. وأظنهم قلقون الآن علي لأنهم لا يعرفون أين أنا؟

وحاول شعبان طمأنته من هذه الناحية مقترحا ان يتصل بالقرية من هاتفه المتحرك لابلاغهم بانهما معا، وقد يتأخران في العودة.. لكن عمر الذي قبل الجزء الاول من الاقتراح.. أصر على رفض الجزء الثاني منه قائلا أنه ما زال صغيرا على هذه الأمور، وانه لا يريد ان يجد نفسه متورطا فيها فيما بعد.

الا ان شعبان لم يأخذ بما قاله عمر، واعدا اياه بان المسألة لا تعدو ان تكون الا للتعارف، وان له الخيار فيما بعد كي يطور العلاقة او ينهيها بالشكل الذي يريد. ومع ذلك ظل عمر مصرا على رفض الفكرة .. ومع إلحاح شعبان على البقاء نصف ساعة اخرى، وانفعال عمر الذي راح يتصاعد غضبا، وافق عمر أخيرا على فكرة التعارف مع فتاة يهودية ولكن بشرط ان يقابل الفتاة في مكان قريب عليه في الضفة، وليس في شقة صديقة شعبان في "رمات جان" خوفا من إنكشاف أمره لاحقا بطريقة او بأخرى، وهو الذي ما زال يعاني من تشويه سمعته هناك.

ولحسم الامر، طلب شعبان في النهاية أن ينتظرا حتى تصل صديقته، ويبلغها بالامر وترتيب مكان للقاء ان وافقت على الفكرة.. ولم يمانع عمر.

ولم يمض وقت طويل حتى فتح شعبان باب السيارة ونزل منها قاصدا شقة صديقته دون أن يتاكد اولا انها وصلت، لكنه غاب فيها لمدة بينما ظل عمر منتظراً في السيارة.. وعندما عاد.. دخل السيارة مبتسما وهو يقول:

• مبروك.. سنتقابل معهما السبت المقبل في محطة البنزين في مدخل

رام الله..

لكن عمر رد منتفضاً:

– نقابلهما؟ هل تقصد ان صديقتك ستكون موجودة ايضا؟

• طبعا.

فاجابه عمر:

– كلا، لا أريد، ان كان الامر حتميا فسوف أقابلها لوحدي.. وأنا مستعد للذهاب الى رام الله.

وعندما استفسر منه شعبان عن سبب ذلك قال عمر:

• ربما تكون المرة الوحيدة والأخيرة.. واذا تطور الأمر فلدي مكان آخذها اليه في رام الله. وان لم يعجبني الوضع، فلن يعرف احد.

وعندها طلب شعبان انتظاره قليلا لسؤال صديقته بشان هذا الاقتراح.. وعندما عاد في المرة الثانية، أدار محرك السيارة وهو يقول:

– حسنا.. سأعطيك أوصاف الفتاة لاحقا.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر

هروب من النيران

في صباح يوم السبت الموعود تمنى عمر لو ان أمه لم تنجبه.. فقد كان في سوق القرية عندما شاهد ولاء برفقة احدى زوجات اخوالها.. وما أن شاهدته من البعيد حتى أدارت وجهها عنه بسرعة بعد نظرة فاضت بالإحتقار شعر أثنائها بأن سكيناً إخترق قلبه..

لحظتها أدرك كم يكون صعباً على الانسان أن يزيف نفسه وينكر ذاته مهما كان الهدف نبيلاً والغاية سامية..

فولاء التي شاءت الأقدار ان تعطيها كل سبب لكرهه في اليوم نفسه الذي فتح لها قلبه عن حب جارف كان يجب ان تكون الوحيدة المستثاة في هذا الوضع الشاذ.. وان تعرف الحقيقة كي يستمد من حبها قوة تدفعه للمضي

obeikandl.com

قدما بثبات الى الأمام.. لكن التعليمات كانت واضحة.. اذ لا يجب ان يعرف أحد أيا كان بالمهمة التي كلف بها.. وقد حذره فارس بأن التضحية قد تكون صعبة وباهظة الثمن.. وها هو يلمس كم هو صعب ان يرى فجاعة صدمتها به في عيونها التي ترجمتها الى نظرات إحتقار مؤلمة جعلته يفر منها الى رام الله حيث كان يجب ان يذهب في المساء من أجل الفتاة القادمة من تل ابيب والتي ظل شعبان يذكره بان لا ينسى موعد اللقاء معها طوال اليوم السابق.

لكن شعبان فوجيء في مساء ذلك اليوم وهو يرى عمر يترجل من سيارة قرب بيته المقابل للشرفة التي كان يجلس فيها، فنهض من مكانه وهو ينادي عليه بصوت مرتفع ويلوح له بيده داعيا إياه للقدوم اليه، وما أن أصبحا وجها لوجه حتى بادره مستفسرا:

• ألم تحضر الفتاة؟

ورد عمر:

– بل حضرت .. وحسب الأوصاف التي ذكرتها لي.. بل وأجمل من ذلك .. كانت ترتدي قميصا أبيض منقوشا بصورة تلمع لوجه نمر .. وبنطال جينز أزرق.. وقد أوقفت سيارتها "البيجو" الحمراء على جانب المحطة.. وكلّمتها.. وردت علي بلغة عربية سليمة.. وطلبت مني أن أركب معها في السيارة .. لكن ما أن وضعت يدي على مقبض الباب حتى شعرت بالخوف.. واكتفيت في النهاية بطلب رقم هاتفها كي اتصل بها فيما بعد وأقابلها في مكان أنسب.

• ولماذا فعلت ذلك؟

ثم تابع وهو يغمز إحدى عينيه:

• ألم تكن جميلة؟

ورد عمر:

– بل أن جمالها لا يقاوم.. وربما كان هذا هو السبب الذي أخافني قبل ان أرفض الركوب معها في السيارة.

وسأله شعبان:

• كيف؟

ورد عمر:

– تصور ما كان يمكن ان يعتقده عمال المحطة، او أي شخص يراني جالسا وأنا القروي الذي تفضحني هيأتي بجوار فتاة شقراء بكل هذا الجمال في سيارة تحمل لوحات اسرائيلية؟

واستطرد قائلا:

– نحن في انتفاضة.. وما أسرع انتشار الفضائح والشبهات في هذه المعمعة.

• هل تخشى ان تتهم بالعمالة؟

ورد عمر:

– طبعا.. هل أنتظر حتى "يطخوني" او "يشنقوني" علنا في الشارع؟ ومع ذلك فالعملاء لا يظهرون أنفسهم حتى بهذا الشكل.

ورد شعبان:

• أكيد.. وهم محميون أيضاً.

وفي محاولة لتوجيه دفة الحوار قال عمر:

– عندما اوقفوني في بداية الانتفاضة طلب مني ضابط المخابرات قبل الافراج عني ان أتعاون معه، لكني رفضت.

ورد شعبان:

• رفضت؟ ماذا طلب منك؟

– طلب أشياء لا أستطيع القيام بها.

• مثل ماذا؟

– ان أراقب الطلاّب في المدرسة واقدم له تقارير عنهم.

• وماذا ايضا؟

– فقط، كان هذا كل ما طلبه، وقد عرض المال أيضا..

• وما الذي كان يريده منك بالتحديد؟

– لم أصغ له اصلاً، لكنه قال لي أن كل المطلوب مني ان أكتب له تقريراً عن الطلاب الذين يريد مراقبتهم، ومقابل ذلك يدفع لي مكافأة عن كل تقرير.

وسأله شعبان:

• ولماذا رفضت؟

obeikandi.com

ورد عليه عمر:

– أعوذ بالله.. هل تعتقد ان الأمر مزحة؟ ثم كيف تسألني عن ذلك وأنت تعرف ما الذي يفعله الملثمون بمن تنكشف عمالتهم لاسرائيل؟

ورد شعبان:

• بصراحة، كنت أريد ان أعرف كيف ولماذا يقوم اليهود بتجنيد العملاء، ولماذا يقبل البعض او يرفض التعاون معهم.

ورد عمر مجارياً شعبان لدفعه خطوة أخرى نحو ما يريد فعلا أن يوصله اليه:

– بصراحة، كان المبلغ الذي عرضه علي مغر.. وأي شاب في مكاني يومها ربما كان ليقبل على الفور، فقد زاغ بصري أمام الفلوس التي رفضت إستلامها، لكني خشيت ان قبلت ان ينكشف أمري ثم أعدم. فما فائدة الفلوس حينها؟

ورد شعبان:

• صحيح، ولكن ماذا لو لم ينكشف الأمر مثلما هو الحال مع الكثيرين؟ هل كنت تقبل؟

عندها أدرك عمر أن شعبان قد بدأ يقدم له الطعم .. وقد حان وقت تمهيد الطريق له لذلك، فقال مستثيراً إياه قبل ان يقرر تعليقه عند تلك النقطة:

– ما الذي جرنا الى هذا الموضوع؟ انت تعرف باني كنت مع التنظيم.. ولا شك أنهم كانوا سيعرفون.. هل كانوا سيتركوني وشأني؟

• ولكنك لست في التنظيم الآن، وقد فعلوا بك ما فعلوا.

ورد عمر:

– ولو .. إن كان فارس و"شلته" سيئون.. فانا لن أكون سيئا مثلهم.. وسوف يكتشفون يوما ما انهم اخطأوا كثيرا بحقي.

وقبل أن يغادر عائداً الى بيته سأله شعبان:

– وماذا عن الفتاة؟

ورد عمر وهو يبتسم:

– إنس أمرها.. لقد ضحكت عليها بطلب رقم التلفون.. لكني لن أتصل بها ابدا.

openkanal.com

الفصل الرابع عشر

لعنة العمر

تلونت قطوف الحصرم الحامض بالأصفر المخضر والأحمر المسود.. وتناثرت حبات الصبر بأشواكها مثل الكواكب حول مجرات قوالحها.. وأينعت اشجار التين بثمارها بين أوراقها العريضة في الكروم والبساتين المجاورة التي كانت تنبسط خضراء في محيط القرية وجبالها.

ومع كل ما كانت تضفيه الطبيعة من جمال أخاذ يريح النفس في تلك القرية التي لم يصلها القيظ بعد.. ولكن من عادة الفلاحين ان يقولوا "في شهر تموز بتغلي المي بالكوز"..

ففي ذلك الشهر غلت الاحداث كثيرا وبسرعة.. وتلبد أفق الانتفاضة بغبار عاصفة قادمة كانت تثيره من الشرق عجلات الدبابات العراقية التي

obeikandl.com

كانت تواصل التحشد حول الحدود مع الكويت، ومن الغرب ركام الانهيارات المتتالية في دول المعسكر الاشتراكي حليف الفلسطينيين التاريخي في كفاحهم ضد الاحتلال.

وفي الخامس عشر من يوليو بدأت الأمور تنفجر..

فقد وجه العراق إتهامات للكويت والإمارات بزيادة إنتاجهما عن الحصة المقررة لكل منهما من قبل أوبك، وإتهم الكويت بسرقة نفطه من حقل الرميلة الحدودي، وأتبع تلك الإتهامات بعد بخمسة أيام بدفع حوالي 30 ألف جندي عراقي إلى الحدود مع الكويت.

وأثناء ذلك صب غموض الموقف الامريكي الزيت على النار التي كانت في طريقها لتصير حريقا، فبعد ثلاثة أيام من تصريحات في واشنطن عن عدم وجود إتفاقية دفاعية مع الكويت وعدم التزامات دفاعية خاصة نحوها، إلتقت السفيرة الأميركية في بغداد أبريل غلاسبي مع الرئيس صدام حسين لتبلغه أن بلادها ليس لديها رأي في النزاعات العربية–العربية، وحددت له بشكل خاص نزاع العراق الحدودي مع الكويت.

لحظتها تحرك العرب بحثا عما يطفيء الحريق قبل اشتعاله، ولكن رغم محاولات الرئيس حسني مبارك والملك حسين والرئيس ياسر عرفات ووزير الخارجية السعودي سعود الفيصل التوسط لإنهاء الأزمة في مباحثات أتفق على عقدها في جده، الا أنه بنهاية ذلك الشهر كان عدد القوات العراقية على الحدود قد ارتفع إلى حوالي 100 الف جندي.

أما على الجبهة الغربية، فقد كان الانهيار يتواصل في دول الاتحاد السوفياتي.. فاعلنت اوكرانيا السيادة على اراضيها وحقها في إنشاء جيش خاص بها، وتبعتها بيلاروسيا.

وعلى نفس الخطى، انقسمت يوغسلافيا الى صربيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك.. وكذلك اضحى الحال في تشيكوسلوفاكيا التي انقسمت الى بلدين.

وراح كل شيء كان يتهاوى بسرعة ..

وفي الثاني من آب اللهاب كما يصفه الفلاحون، ما عاد الشرق شرقاً..

ولا الغرب غرباً..

فقد وجد الفلسطينيون أنفسهم بين ليلة وضحايا في تقاطع إنقسامات سرعان ما راحت تشق أخاديد أفقية وعمودية في كل الاتجاهات تاركة الانتفاضة التي لم تخب جذوتها على كف عفريت..

وفي تلك الليلة كان الجو ما زال حارا في الخارج رغم أن الوقت جاوز منتصف الليل بقليل، وعمر ما زال جالسا امام التلفاز مع افراد اسرته وهم يتابعون الصور.. دبابتان عراقيتان صبغتا باللون الابيض على مقدمة كل منهما تتمركزان على احد الدوارات.. وسحابة كثيفة من الدخان الاسود يسار برج الكويت.. وجنود مشاة يتقدمون من منطقة صحراوية بدت أمامها بعض الاشجار.. ومروحيات تحلق في الجو.. وبنايات إتشحت أجزاء من واجهاتها بالسواد نتيجة القصف والحرائق.. وكويتيون يفرون على أرجلهم وبالسيارات الى غير إتجاهات غير محددة وان كان طابور طويل منها ظهر متجهاً نحو الحدود السعودية.

وفي خضم نقاش ما كان يتوقف أثناء مشاهدة الصور، تعالت أصوات جلبة وحركة صاخبة في الخارج، وقبل أن يهم أحدهم بالنظر من النافذة.. صمّت آذانهم أصوات طرقات قوية على الباب إنفتح من شدتها.. وفي أقل من غمضة عين كان أكثر من 20 جنديا اسرائيليا في الغرفة وهم يصوبون أسلحة بنادقهم الـ ام16– على كل واحد فيها آمرين إياهم بالثبات كل في مكانه.

وكان السؤال مباشرا من قائدهم وهو يحاول تمييز عمر من بين اشقائه الأصغر منه:

– أنت عمر؟

ووسط من حالة الارتباك والفزع عمت في البيت، أجاب عمر:

• نعم.. أنا عمر

وعلى الفور سحبه أحد الجنود بقوة من كتفه، ثم دفعه أمامه بعنف للخروج معهم دون التفات للتساؤلات والدهشة والخوف الذي تركوه ورائهم.

وفي الخارج، شاهد عمر الذي ألجمته الصدمة وحجبت عنه القدرة على التفكير السريع، عدة سيارات عسكرية تطوق البيت، وجنود بأجهزة لاسلكية ومناظير ليلية كانوا منتشرين في كل مكان في محيط المنزل قبل أن ينقض عليه احدهم لنزع القميص الذي كان يرتديه ويعصب به عينيه، ثم يضع يديه الى الخلف، ويوثقهما بشريط بلاستيكي شدهما الى بعضعها بعنف آلمه كثيراً.

ومع أن الطريق كان طويلا على عمر الذي بطحه الجنود تحت أرجلهم في أرضية "الجيب" الخلفية وهو معصوب العينين، إلا ان ذلك لم يسعفه في استيعاب ما يجري.. والتفكير بسبب إعتقاله هذا..

فقد مضى على إعلان فصله من التنظيم أكثر من خمسة اشهر، ولم يترك تساؤلاً يدور في ذهن شعبان دون أن يجيب عنه حتى صدقه.. وقلما كان يبتعد عنه طوال هذه الفترة.. وقد قبل أن يرافقه أكثر من مرة في "مشاوير" للتنزه في تل ابيب ونتانيا وحيفا، وأماكن اخرى كثيرة..وصار يقبل منه هداياه .. واموالاً كان شعبان يخرجها بين الحين والاخر من جيبه كي يأخذ منها عمر ما يشاء ليمتع بها نفسه.

ولو كان الامر يتعلق بشعبان.. لما أخذوه من بيته بهذا الشكل المهين.

وفكر في أن المخابرات ربما نجحت في الإمساك بأفراد من التنظيم أوردوا إسمه تحت التعذيب لسبب او لآخر..

لكن كل ما كان يفكر به كانت تبدده صرخة ألم كلما ركله أحد الجنود بين الفينة والاخرى وهو تحت أرجلهم، ثم يعود بعدها للتفكير من جديد.

وعندما توقفت السيارة أخيرا ونزل منها.. سرعان ما أدرك عمر بانهم يدخلونه الى مبنى "المقاطعة" في نابلس، فقد حفظ غيباً منذ المرة الاولى التي أوقفوه فيها قبل نحو عامين عدد درجات مدخله، والتي راح يضرب كل واحدة منها بأخمص قدمه للتأكد، قبل ان يصعدوا به معصوب العينين الى ما بدا له أنه غرفة خالية في الطابق الثاني.

وفي تلك الغرفة التي أجلسوه فيها راكعاً على قدميه في ظلمة دامسة ووجهه نحو الجدار لنحو ساعتين لم يشعر مثل المرة الماضية بوجود أحد

غيره فيها. ولو كان هناك أفراد آخرين اعتقلوا معه من التنظيم لسمع شيئا ولو همهمة او صوت تنفس من حوله.. لكنه كان وحيدا في ذاك السكون هناك على غير الحال عندما يعتقل عدد من الافراد في ليلة واحدة. فزاد ذلك من حيرته ودهشته. وراح يتوقع كل سؤال ممكن ان يطرح، ويفكر بجواب لكل سؤال منتظر في التحقيق الذي لم يكن يعرف متى ستحين لحظته، حتى بدا له ان أسوأ ما في الأمر هو ان يواجهوه بأحدهم، وحينها قد تنسف خطة الإنكار التي راح يبنيها بمواجهته بدليل يصعب التعاطي معه من دون تفكير مسبق.

وأخيرا حضر جنديان مرة أخرى وهو ما زال يفكر، أوقفاه من مكانه ثم اقتاداه الى غرفة أخرى كان وهج الضوء فيها قوياً الى حد أنه شعر بانه فقد القدرة على الإبصار عندما رفعوا قميصه المعصوبة به عيناه .. لكنه جاهد ليرى نفسه واقفاً أمام ضابط بالزي المدني .. أصلع، طويلاً ، ضخم الجثة، له شارب كثيف، يجيد اللغة العربية باللهجة المحلية، وهو يبارده بالسؤال:

– أنت عمر؟

ورد عمر وهو يحاول تكييف بصره مع قوة النور الساطع في الغرفة:

• نعم أنا عمر

وأكمل الضابط:

– وعضو في التنظيم؟

ورد عمر:

• أي تنظيم؟

فرمقه الضابط بنظرة تحمل شراً .. لكنها لم تمنع عمر من تكرار الإجابة نفسها بالنفي.

وعلى عكس ما كان يتوقعه عمر، والذي أعد نفسه للاجابة على السؤال التالي، فقد اكتفى الضابط بنفس تلك النظرة المخيفة وهو يحدق فيه، ثم راح يكتب على ورقة بالعبرية فيما عمر واقفاً، وعندما إنتهى توجه اليه قائلا:

• الوقت متأخر الآن .. وغداً السبت.. سأراك صباح الأحد.. وسوف نرى.

وخرج الضابط من الغرفة حاملاً ورقته التي وقع عليها، ثم سرعان ما حضر جنود آخرين ليأخذوه معهم.. ولكن ليس الى غرفة أخرى في ذلك المبنى.. وإنما بدون عصبة على العينين هذه المرة الى مبنى سجن نابلس الذي لم يكن يبعد اكثر من 500 متر حيث جرد من ملابسه وأعطي ملابس أخرى قبل نقله الى زنزانة انفرادية.

ومع ان عمر كان متعباً من إجازة ذلك اليوم الذي وترته أخبار الإجتياح العراقي للكويت.. ومن الركلات التي لم يفلت منها جزء في جسمه على الطريق من القرية الى مبنى المقاطعة.. والوقت الذي أمضاه في عتمة مطبقة .. الا ان النوم طار منه وهو يحاول فك اللغز الذي زاد غموضاً بهذا التحقيق الأولي من سؤالين فقط ومن ثم نقله الى هذه الزنزانة مباشرة دون المرور بالاجراءات التي اختبرها في المرة السابقة التي اوقف فيها حيث احتجز أولا في غرفة النظارة قبل نقله الى احد اقسام السجن في الداخل.

وفي تلك المرة التي اوقف فيها لمدة اسبوعين ثم افرج عنه بكفالة لصغر سنه، كانت الأسئلة في أول جلسة للتحقيق كثيرة ومتلاحقة.. وقد أمضى يومها نحو ساعتين كان يتخللهما الضرب احيانا من جندي ظل واقفاً خلفه طوال مدة الوقت وهو يجيب عن أسئلة تتعلق باحداث وأسماء، وعدد الحجارة التي ألقاها على الدوريات والجنود، والإطارات التي أحرقها.. ومن كان يحضرها.. ومن أين.. والأماكن التي شارك فيها بالمظاهرات والمواجهات..

ولو ان السؤال كان يتعلق بمعتقلين آخرين من التنظيم لما انتهى التحقيق على هذا النحو السريع.. فقد كان الضابط ليسأله عن معلومات او ربما واجهه بمعلومات.. لكنه لم يفعل.. وانما تركه رهينة الانتظار حتى يوم الاحد.

ورغم القلق والحيرة .. الا ان عمر راح يستذكر ايضا تعليمات التنظيم في مواجهة ضابط تحقيق ماكر او مخادع.. مثل هذا الضابط الذي لم يوحي شكله بغير ذلك من الوهلة الاولى .. وراح يعزز خطة الانكار برسم اتجاهات متوقعة لما يمكن ان يأخذه اتجاه التحقيق المنتظر صباح الاحد..سواء من

حيث علاقته بالتنظيم.. أو ما يعرفه عن المطاردين.. وعن فارس.. وماذا طلبوا منه عندما التقاهم في المغارة ان كانوا قد علموا بأمر ذلك الاجتماع .. ومن هم الملثمين الذين اشبعوه ضربا في سوق القرية.. او بعلاقته مع شعبان.. او بمعلومات ربما وصلت عن قطعه "الخط الاخضر" من دون تصريح.. والفتاة التي حضرت من تل ابيب لمقابلته في محطة بنزين في مدخل رام الله..

وفي اليوم التالي راح يوسع من رسم الخطة وهو يجوب الزنزانة حائرا في الاسئلة المتوقعة وغير المتوقعة.. والاجابة المناسبة لكل سؤال..

وفي صبيحة الاحد كان يرى انه صار مستعداً.. وقادراً على تحمل الاسوأ والاصعب..

لكن يوم الاحد انقضى بكامله وهو عبثاً ينتظر قدوم أحد الجنود لاصطحابه الى المحقق في أية لحظة.. وعندما شعر بان الوقت دخل في الليل.. ادرك ان كل ما فكر فيه لن يكون له فرصة للتطبيق في ذلك.

وكذلك ظل الحال بعدها لمدة 11 يوما كاملة..

اذ كلما سمع وقع اقدام في الردهة، كان يعتقد بانهم قدموا اخيراً.. ولكن ما ان يتناهى الى سمعه ابتعاد خطوات الجنود حتى يغرق من جديد في تلك الحيرة القاتلة والتي لم يكن يخففها عدم التعامل معه بفظاظة عند اخراجه وحيداً "للفورة".. او جودة الطعام الى حد ما بالمقارنة مع ما اختبره من قبل في توقيفه الاول... او سرعة استجابة شرطي الحراسة عندما يطرق على الباب لطلب شيء مثل كوب شاي، او جريدة يتابع منها أخبار اجتياح الكويت وتداعيات قمة القاهرة التي انقسمت بعد أسبوع من يوم إعتقاله.

وفي كل مرة كان يشتط به الغضب كان يصرخ على واحد من ثلاثة حراس كانوا يتناوبون عليه ولم ير غير وجوههم طوال تلك المدة ليسأله عن سبب وجوده في السجن؟ ولماذا في زنزانة منفردة وليس مع آخرين؟ وأين ذلك الضابط الذي قال له انه سيراه في اليوم التالي ثم اختفى عنه؟ وماذا يريدون منه بالضبط؟

لكنه لم يكن يحصل على اي إجابة سوى : لا اعرف.. انتظر وستعرف.

ومع ذلك كان ثلاثتهم يظهرون نوعا من الود والاستجابة لطلباته بالشكل الذي يجعله مطمئنا لهم على الدوام.

obeikandl.com

الفصل الخامس عشر

معلومات وذهلة

طوال الاشهر الخمسة التالية منذ اعترافه باغتيال الدكتور جليل، وشيء ما كان يكبر في رأس نعيم وهو يحاول يوما بعد آخر اثبات صدق توبته واظهار ان ضميره قد صحا على ماض حقير لطخه بوحل الخيانة والعار الذي لا يمحوه ابدا حتى الموت بطريقة مشرفة.

فما ان اكتملت بقية ذلك الشهر حتى كانت بيد قادة التنظيم في المعتقل ثروة مذهلة من المعلومات الخطيرة.. وكلما كان المحقق ايمن يعتقد ان ما يسلمه نعيم اليه في الليل سيكون آخر تقرير قبل البت في مصيره، كان نعيم يفاجؤه في الليلة التالية بتقرير آخر لا يخلو من اسرار جديدة أهم.

وكل الحكاية بدأت من اعلان نشر اوائل الثمانينات في صحيفة عن

obeikandl.com

وظائف شاغرة لعمال او غيرهم في اسرائيل.

كان نعيم قد درس الاقتصاد والعلوم السياسية، لكنه لم يجد بعد تخرجه من الجامعة عملا في البداية سوى عامل بناء في اسرائيل لنحو سنة، وعندما وقعت عيناه على الاعلان قدم طلبا بالفاكس، وبعد عدة ايام جاءه الرد بوجود وظيفة في مركز ابحاث طلب منه في البداية تقارير عامة عن اقتصاديات الضفة الغربية، ولكنهم ابلغوه بعد مدة قصيرة بان المركز اغلق لعدم جدوى عمله، وحولوه الى مركز آخر في القدس يدفع بالقطعة. وكانت صلة وصله مع المركز الجديد موظفة تتحدث بالعربية زعمت في البداية ان اسمها غادة، وانها فلسطينية من الجليل، وكانت تواظب في الثناء على تقاريره، وهي التي كانت تتولى امور الدفع له.. وتطلب التقارير الجديدة منه.. الى ان دعته ذات يوم لتتعرف عليه شخصيا وتقدمه في الوقت نفسه الى باحث امريكي زائر اسمه بوب يعد دراسة لمركز في واشنطن يعنى بابحاث ودراسات بالشرق الاوسط.

لكن بوب لم يكن غير ضابط مخابرات كما اكتشف نعيم فيما بعد...

فبعد ان انتهى من مقابلته في ذلك اليوم، خرج بوب من باب جانبي تاركا وراءه نعيم والمدعوة غادة التي عرف فيما بعد انها اسرائيلية اسمها ايرما، والتي كان كل ما فيها يضج برغبة جنسية عارمة لم تخفها وهي تحاول التقرب اليه بالتعبير عن توقها لملاقاته منذ عمله مع المركز.. وبمساءلته عن علاقاته مع الفتيات.. وغمزات عينيها المتلاحقتين كلما كانت تظهر له شيئا من مفاتنها .. وايحاءاتها الكثيرة التي كادت ان تطير صوابه ف ذلك اليوم، والتي جعلته فيما بعد يكثر السفر الى القدس لقبض ما يستحق له في المركز ولدى بوب..

لكن غايته الدفينة في كل مرة هو التواصل معها.. حيث راحت تدعوه لمرافقتها الى بيت قريب زعمت انها تسكن فيه وحدها.. وفي ذلك البيت الذي رافقها اليه عدة مرات، والذي تكررت سهراته فيه وهو يشرب الخمر فيما هي تتراقص شبة عارية احيانا امامه جرته غادة الى السرير مترنحاً اكثر من مرة خاصة في تلك المرات التي كانت تعطيه حبوباً تجعله يشعر بانه

طائر يحلق منتشياً في فضاءات من اللذة والمتعة فوق جسدها العاري قبل ان يغط بعدها في نوم عميق مثل ميت لا يفيق منه الا في اليوم التالي.

وفي احدى المرات حملت اليه حقنة مورفين وطلبت منه ان يحقن نفسه بها، وحتى تثير همته حقنت نفسها قبله بحقنة اخرى لتشجعه، ففعل مثلها، وبتكرار ذلك كاد ان يدخل في مرحلة ادمان لولا انه اكتشف ذات يوم بانها تخادعه ... وانها كانت تفرغ حقنتها في كيس مطاطي كانت تلصقه بذراعها.. فهاج وخرج غاضباً من منزلها معلناً حصر العلاقة معها في عمله مع المركز فقط بعدما ظهر انها كانت تنوي تدميره.

وواصل نعيم في تقريره ذاك قائلا:

–حتى ذلك اليوم، كان المدعو بوب لا يطلب منه اكثر من معلومات عادية كان يستقي معظمها مما ينشر في الصحف او مما يصدر عن الجامعات او البلديات او الجمعيات او المؤسسات المحلية من احصائيات ودراسات.

ولكن بعد ان اكتشف خديعة المورفين، صار بوب يطلب منه ما هو اكثر من مجرد عمل يتعلق بدراسة اقتصادية عامة عن إقليم.. فقد راح يطلب معلومات وتقارير عن شخصيات وأحداث محددة... وعندما طلب منه في آخر مرة النفاذ والوصول الى قيادات في فصائل المقاومة لا علاقة لها بموضوع الدراسة المزعومة، أدرك نعيم انه ربما صار متورطاً بالفعل مع ضابط مخابرات اسرائيلي وليس مع باحث امريكي ظل يحادثه طوال تلك الفترة بانجليزية امريكية اللكنة.

ولحسم الامر، استقل سيارة الى القدس، وفور دخوله المركز بادر غادة بان تنقل اعتذاره لبوب عن استمرار العمل معه.. لكنها فاجأته في تلك اللحظة بانه يتحدث مع عميلة للشاباك اسمها ايرما، وان عليه ان يصغي جيداً لما سيطلبه منه الكابتن ابوالنمر، وهو نفسه الذي قدمته اليه باسم الباحث بوب.

وللوهلة الاولى لم يكترث نعيم للمفاجأة التي فجرتها ايرما في مسمعه.. فقد كان يدرك ان كل ما كتبه لا يمثل خطورة من أي جانب، وكل ما أرسله حتى ذلك الوقت لم يكن سوى معلومات واحصائيات معروفة، وان كل

ما فعله هو جمعها وصياغتها بطريقة أكاديمية.. كما كان متأكداً من عدم وجود أحد في المركز أو في بيتها غيرهما فقط عندما يكونان لوحدهما معا في اللحظات الحميمية.

وكان ينوي الرد على أي تخويف ممن أسمته الكابتن ابوالنمر بانه ليس ممن يبيعون انفسهم للشاباك.. لكن ما جعله يرتج فعلاً عندما خرج ابوالنمر في تلك اللحظة من نفس الباب الجانبي الذي خرج منه في المرة الاولى ليلقي امامه مجموعة من الصور قائلا:

– وما رأيك بهذه؟؟

وأضاف نعيم في تقريره قائلا:

– لحظتها اصابني الوجوم.. وكدت ان اسقط عن الكرسي الذي كنت جالسا عليه قبالة ايرما.. فقباحة الخلاعة في تلك الصور لم تكن تضاهي قباحة ملامحي وشكلي في كل وضع.. صور يعطي بعضها انطباعات عن إنسان ماجن وضيع يدعو للسخرية والاحتقار.. وصور أسوأ ظهر في واحدة منها جانب واحد من وجهي وقد البسوني زيا عسكريا اسرائيليا وأجلسوني اثناء تخديري بالحبوب فيما يبدو قبالة ابوالنمر بزيه العسكري أيضا بما يوحي اننا كنا نتحدث معا حول شيء ما.

ويومها ايقنت بان كل ما جرى منذ اليوم الاول كان مرتباً.. وان ايرما وهذا الضابط نجحا في اسقاطي بواحدة من الطرق المعروفة التي طالما سمعت عنها ولكنها لم تخطر في بالي ابداً كلما كنت استسلم ضعيفاً امام نزوة كنت أظنها عابرة مع أمرأة مثيرة كتلك العاهرة التي كانت جالسة امامي والتي ما أزال أتذكر صوت ضحكاتها الماجنة وانا أخرج آخر مرة من بيتها غاضباً.

واكمل نعيم في ذلك التقرير الذي كان يشرح فيه بداية ارتباطه مع المخابرات قائلا:

– بعدها صرت رقماً، واعطاني ابوالنمر اسماً حركياً، وتحولت التقارير التي صرت ارسلها الى رقم فاكس آخر غير رقم المركز الى أمنية واضحة، عناوينها إستبيانات وإستقصاءات وإستطلاعات يتخللها

اثناء اجرائها محاولات للوصول الى معلومات اكثر دقة عن اشخاص محددين.. وتوجهاتهم.. وإهتماماتهم الشخصية.. وتحركاتهم .. والنفاذ عن طريقهم الى آخرين مقربين منهم.. وهكذا.. ثم تطور العمل الى اكثر من ذلك.. فدربوني على عمليات إسقاط وتدريب على السلاح بداعي الدفاع عن النفس، لكنها ترجمت بعد ذلك إلى مشاركات مع الجنود في مداهمات لاعتقال مطلوبين وعمليات إغتيال وقتل كان من بينها عملية اختطاف وقتل الدكتور جليل، وإغتيال القائد الميداني محمود الذي كان من اخطر المطلوبين في تلك الفترة.

واكمل:

– مع بداية الانتفاضة كان وضعي قد تطور مع ترقي ابو النمر الى مقدم، وتحول عملي معه لامداده بمعلومات عن الحالة الشعبية من مظاهرات ومسيرات وأسماء المسلحين، وإسقاط وتجنيد اكبر عدد من العملاء باغراءات المال والمخدرات والجنس.. وكانت اللقاءات مع عملاء آخرين ومرشحين للتجنيد تتم أحيانا بطلب منه.. فهو الذي كان يحدد المكان والزمان.. وهو الذي كان يأمر ويخطط، وهو الذي طلب مني لاحقاً الالتحاق بدورة كمبيوتر ليتحول ارسال التقارير عن طريق الفاكس الى البريد الالكتروني عن طريق الانترنت.

وفي التقارير التي تلت على مدى ذلك الشهر واصل نعيم اعترافات كشف فيها عن شبكة عليا من العملاء قسمها ابوالنمر الذي اصبح عقيدا فيما بعد الى مجموعات كانت كل واحدة منها تعمل في مهمة محددة، وتجتمع بشكل مستقل، احداها لاطلاق الشائعات واخرى لتحريك فصائل المقاومة ضد بعضها، وثالثة لاسقاط عملاء وتجنيد متعاونين، ورابعة تتحرك في القرى للوصول الى المطاردين في الجبال.

اما هو فقد اختاره ابو النمر ليكون مسؤول الارتباط بين هذه المجموعات، والقناة التي تمر عبرها التقارير.

وكان المفاجيء لقيادة التنظيم في المعتقل وهي تقرأ اعترافاته المكتوبة، الاسماء التي ذكر معظمها باسمها الحقيقي غير الرقم الذي يميزها في

الشاباك، فقد كان من بينها أسماء معروفة كثيرة، وقد شرح نعيم كيف دفعوا بوصول بعضهم الى قيادات متقدمة في بعض الفصائل بترتيب مع ابوالنمر الذي كان يمهد الطريق بعمليات اعتقال من يتقدمونهم في الصف الامامي حتى يفسحوا لهم الطريق الى مراكز اعلى، ومن بين هؤلاء شعبان وآخر كان يعلوه مرتبة في التنظيم وهو ما سهل عليهم تجميع الاسماء واختراق صفوف المقاومين.

كما كشف نعيم بعضا من الاساليب الاخرى التي اتبعوها للوصول الى قيادات المطاردين ومنها محاولات الاغراء بالسلاح والمواد الكيماوية الممنوعة والتي يصعب الحصول عليها من الاسواق مثل مادة ثلاثي نيتروتولوين التي تستخدم في صناعة المتفجرات (TNT)، واستخدام اجهزة الكترونية غاية في الدقة منها جهاز لاسلكي مسطح استخدمه في عملية اغتيال القائد الميداني محمود حيث ثبتت المخابرات الجهاز في حشية قميص ملون ظل واحد مثله طبق الاصل مع ابوالنمر عندما طلب منه التردد على منزل شخص ثالث بعد معلومات بان القائد الميداني محمود كان يتردد على نفس المنزل.

وكتب نعيم عن تلك العملية قائلا:

– في يوم اغتياله، كان الوقت قبيل غروب الشمس، واثناء تأديتنا صلاة المغرب وضعت يدي على الجهاز وفتحته، ثم صعدنا للعشاء على سطح المنزل، وفجأة حاصرنا الجيش من كل الجهات، واطلق محمود الرصاص لكنه اصيب بقذيفة مباشرة قتلته على الفور، وظل الحصار مضروباً بعدها لنحو ساعتين قبل ان يطلب الجيش خروج من فيه رافعي الايدي، وكنت انا من بينهم حيث امسك بي ضابط، وبعد ان تفحص اوراقي امام الباقين قال "نريد هذا" .. ثم طلب من الجنود نقلي الى سيارة عسكرية أخذتني بعيدا عن المنزل حيث كان ابوالنمر ينتظرني في سيارة عادية، وبعدما اكدت له مقتل القائد محمود طلب مني خلع القميص ففعلت، وناولني القميص الآخر ليستعيد جهاز الإرسال، ثم اخبرني بانه سيتم اعتقالي لفترة بسيطة كما حدث في مرات اخرى سابقة ولاحقة للتغطية على عملي مع الشاباك.

وبعدما انتهى نعيم من كتابة كل ما كان يعرفه ابلغه المحقق ايمن بان قيادة التنظيم في المعتقل وافقت على منحه فرصة التطهر، وطلب منه ان يستمر في علاقته كما كان يفعل وبنفس الطريقة التي كان يستخدمها بواسطة كرة السلة، وانما ليرسل معلومات كاذبة ساعدت لاحقا في الافراج عن عدد من الموقوفين الذين احضروا معه في نفس اليوم الى معتقل عسقلان من سجن جنيد في نابلس حيث كانت مهمته الحصول منهم على معلومات تساعد التحقيق معهم.

وقبل ان تندلع الازمة بين العراق والكويت، وافق نعيم على خطة اقترحتها قيادة المعتقلين بان يرتب مع الشاباك موضوع خروجه من السجن ليصبح عميلا مزدوجا، وكي يثبت التزامه بما وافق عليه لالغاء قرار اعدامه: قتل جندي او مستوطن.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس عشر

تجنيد عمر

في اليوم الثاني عشر من اعتقاله وجد عمر نفسه واقفاً للمرة الثانية أمام نفس الضابط، لكن ملامحه لم تكن بالصورة نفسها التي رآه فيها في المرة الاولى.. فبمجرد ان دخل الى الغرفة.. نهض الضابط مبتسماً، ومد يده لمصافحته وهو يعرف عن نفسه باسم ابو النمر، وطلب منه الجلوس على الكرسي المقابل.. ثم بادره بالحديث:

- تاخرت عليك.. لكني اعطيت تعليمات بعدم مضايقتك في السجن..

وتابع وهو ينظر اليه مستفسراً:

- هل ضايقك أحد؟

وظل عمر صامتاً فيما أكمل ابوالنمر قائلاً وهو يدفع نحوه بكوب من

obeikandl.com

الشاي وعارضاً عليه سيجارة امتنع عن تناولها باشارة من يده..

• والآن يا عمر.. هل تخبرني عن حكايتك مع التنظيم؟

ورد عمر:

– أية حكاية؟ وأي تنظيم؟ ليست لي اية علاقة باي تنظيم.

ورد ابوالنمر:

• نعرف انهم فصلوك .. لماذا؟

ورد عمر بجواب لم يخل من سرعة بديهة بعد لحظة تفكير قصيرة:

– ان كنت تقصد ذلك .. فانا لا اعرف اصلاً لماذا صدر بيان الفصل .. فانا لم أكن يوما عضواً في التنظيم.

• ولكنك كنت معروفاً في المدرسة بانك واحداً منهم.. لا تظن باننا لا نعرف كل شيء عنك..

لكن عمر رد هادئا:

– نحن طلاب .. ولنا رأينا .. وقد تتفق الآراء احياناً، وأحيانا نختلف.. لكني لم أكن ابداً في التنظيم؟

ثم فاجأه ابوالنمر:

• وفارس؟

ولم يدرك عمر على الفور ما المقصود من هذا السؤال .. وما اذا كانوا قد نالوا من فارس، او ان تعرض لأي أذى .. لكنه بدأ يشعر بانه يُستدرج الى شيء ما، وكي يستكشف ما يريده الضابط الجالس قبالته رد قائلا:

– تقصد فارس الذي ما زال مطارداً في الجبال؟

ورد ابو النمر مؤكداً:

• نعم

وكان في اجابته ما بعث الاطمئنان في نفس عمر الذي تابع السؤال قائلا:

– انه أحد أقربائي.. وأنتم تطاردونه، وهو لا يكاد يُرى في القرية، ولا أحد يعرف مكانه.. حتى زوجته.

غير ان الضابط رد قائلا:

obeikandl.com

• انا لا اسألك عن مكانه.. نحن نعرف كل المناطق التي يتنقل فيها .. وعاجلاً ام آجلاً سوف يقع بين ايدينا مثل غيره حتماً.. لكني اريد ان اعرف عن علاقتك به؟ وماذا كان يطلب منك؟ وما الذي فعلته من اجله؟

لحظتها شعر عمر بان ابوالنمر كان يتحدث بلسان شعبان .. فهو الوحيد الذي أخبره عن هذا الشكل من العلاقة مع فارس.. كما انه لم يفوت فرصة للقاء بينهما دون ان يعرف معلومة جديدة عن مدى هذه العلاقة، ومع ذلك حافظ على حالة الخوف التي ظل يتظاهر بها عمداً من اول التحقيق وهو يكمل:

– كان هذا في الماضي وقبل ان يصبح مطارداً في الجبال.. وقد اوقفتموني اسبوعين على ذلك وخرجت بغرامة 3000 شيكل.

ورد ابوالنمر:

• انا لا اسألك عن الماضي.. بل عن السبب الذي جعل فارس يصدر بياناً بفصلك.. كل الناس يعرفون بان فارس هو الذي اصدر البيان. وهو الذي أرسل ملثمين ليضربوك عندما مزقت صور قادة التنظيم في سوق القرية.. وأنا أريد ان اعرف منك لماذا فعل بك ذلك.

وببداهة أيضا حاول عمر ان يحرف اتجاه الحوار قائلا:

• صدقني لو قلت لك بانه لم يوجد شيء مهم يربطني بفارس.. ولو كان الامر كذلك .. فماذا سيكون في رأيك؟ ماذا يمكن لمطارد ان يطلب من طالب حلمه ان يكون طبيبا مثلي؟

ورد ابو النمر قائلا:

– اوه.. هناك الكثير..

وقبل ان يواصل قاطعه عمر مسترسلاً بحالة من الهجوم المعاكس:

– ان كنت تقصد المظاهرات .. نعم شاركت فيها.. وان كنت تقصد المواجهات .. نعم كنت فيها.. وكان يطلب مني ان احرض الطلاب على المواجهة والخروج الى الشوارع .. وتوزيع المنشورات .. وهذا كل شيء .. وهذا ما يفعله الآن كل الطلاب في المدارس .. ولا أحد يمكنه وقفهم.. ومن لا يشارك في ذلك فاقل ما يوصف به الخيانة والعمالة .. وقد يضرب ويهان..

أو ربما يعدم .. وانا يهمني مستقبلي..

ثم اردف قائلا:

– هل تظن بان ما لحق بي كان قليلا رغم اني لا اعرف سببا لذلك حتى اليوم؟

غير ان ابوالنمر الذي بدا مصغيا لكل ما كان يقوله عمر، رد بهجة حازمة هذه المرة قائلا:

• اسمع يا عمر، واسمعني جيدا.. حتى الان لا يعتبر هذا التحقيق رسميا.. ولا شيء مسجلا ضدك.. لكنها جلسة خاصة بيني وبينك.. وانت تتحدث مع عقيد.. أهلك الذي يبحثون عنك منذ أسبوعين يعلمون الان بانك قد تخرج خلال اسبوع لعدم ثبوت شيء عليك.. لكني قد اغير هذه الحقيقة بتحويلك لاعتقال اداري لا فكاك لك منه، وقد أدمر مستقبلك.. ما زلت أعاملك باحترام حتى الآن .. والامر بيدك.. ان وافقت على ما ساقوله لك، سوف أقف الى جانبك .. وسوف اساعدك.. وستكمل تعليمك في المكان الذي تريد.. وان رفضت، فتخيل ما يمكن ان تفعله عدة سنوات من السجن بمصيرك، ويكفينا ان نستند الى بيان فصلك من التنظيم لتفصيل التهمة.. والتهم عندنا كثيرة وجاهزة، والمحكمة العسكرية لا يهمها التحقق من مسرح العمليات، وسوف يأخذون بما سنتهمك فيه.. ماذا قلت؟

ومع انها كانت رسالة تهديد واضحة تلاها الضابط ابو النمر بطريقة صارمة، الا ان عمر ادرك في تلك اللحظة ان الامور ربما كانت تميل الى صالحه لو كان لشعبان علاقة بما يجري.. لكنه ادرك ايضا ان ابو النمر الذي انعكست جديته في الاحمرار الذي علا صلعته ربما كان يتحدث في اتجاه آخر لا علاقة له بشعبان او بغيره، وانما بالوضع الذي آل اليه منذ ان راحت سمعته تتشوه يوما بعد آخر وفقاً لخطة التنظيم.

وقبل ان يستغرق في التفكير اكثر كان ابوالنمر يتابع رسم الصورة المظلمة في وجه عمر ان رفض ما سيطلبه منه قائلا:

• انس الثورة والثوار .. هل تعرف ما يكتبونه عن عرفات اليوم في الصحف العربية؟ وما يقولونه عن الفلسطينيين في الفضائيات بعد موضوع

الكويت؟ لقد تخلى العرب عنكم، وبانتظاركم أيام سوداء .. وهذه الانتفاضة مصيرها الفشل، ولن تحصدوا غير مزيد من الدم والقتلى في صفوفكم طالما ظل هؤلاء الحمقى والمخربين مسلحين في الجبال .. لكن اسرائيل لا يهمها كم سيطول ذلك .. وانت شاب .. وتهمك مصلحتك الشخصية في النهاية.. اليس كذلك؟

وفيما كان يحملق في ابوالنمر منتظرا ان يفصح عما يريده منه رد عمر:

– بالتأكيد

واكمل ابوالنمر:

• اذن خذ قرارك الصائب الآن: ساعدني اساعدك .. فاما ان نخرجك بطلاً مرفوع الرأس لم نستطع انتزاع اعتراف منه، او ان تمضي عدة سنوات مشبوها مثل "العصافير" في السجن لشيء لم تفعله.

وبعد تفكير سريع رد عمر كأنما يوازن بين الخيارين:

– ولكني لا اعرف كيف يمكنني ان أساعدك..

فرد ابوالنمر مبتسماً:

• هكذا .. الآن يمكننا التفاهم بشكل أفضل.. وستعرف فيما بعد ان وافقت .. وعموما، فانا لا اريد منك الكثير .. اشياء بسيطة لن تعرضك لاي اذى مثلما فعله التنظيم بك.

وحاول عمر جاهداً ان يتخيل ما يمكن ان يطلب منه، لكنه رد قائلا:

– أنت تطلب مني التعاون معكم.

ورد ابو النمر مؤكدا:

• بالضبط

– يعني ان اصبح عميلا؟

• ليس بالضرورة ان يكون المتعاون عميلا.. كما ان احداً لن يعرف بالامر، سيظل الامر بيننا فقط، وقد لا اطلب منك الكثير.

وصمت عمر برهة وهو يواصل التفكير ثم قال:

– هل تعطيني فرصة كي افكر؟

obeikandi.com

ورد ابوالنمر:

• لا مانع.. هل يكفيك يوماً؟

ورد عمر:

– نعم..غداً أرد عليك..

وحتى صبيحة اليوم التالي كان عمر قد حاك جيداً خطة الرد في الليل، وكان كل ما يهمه هو ان يقتنع ابوالنمر بالشرط الوحيد الذي وضعه من أجل قبول التعاون معه.

وعندما سأله ابوالنمر عن ذلك الشرط رد قائلا:

• ان لا تكون لي اية صلة او لقاء من قريب او بعيد بأي اسرائيلي او إسرائيلية .. حتى أنت.

وفهم ابوالنمر من عمر انه يرغب في التركيز على ترميم سمعته التي لطخها التنظيم، وانه يريد ان يجتاز امتحانات الثانوية بهدوء ليكمل بعدها دراسة الطب..وانه لا يريد ان يصله قريبه فارس ليطلق عليه الرصاص بيديه مثل الخونة والعلماء ليظل بطلا على حساب سمعته..

ولذلك، فكر ابو النمر قليلا ثم قال:

– وليكن.. ستكون علاقتك مع عربي مثلك، ويمكنك اعتباره مسؤولاً عنك وهو ضابط مثلي.

ورد عمر:

• هل يعرفني او اعرفه؟

واجاب ابو النمر:

– ستعرفه.. اذهب الآن واستعد للخروج عصر اليوم من السجن.. وان سألك احد قل ان التحقيق كان متواصلاً كل يوم عن عناصر التنظيم الذي شوهوا سمعتك والذين آذوك، لكنك تمسكت بالانكار ولم تعترف عن احد، واننا لم نكن نملك دليلاً آخر ضدك، لذا افرجنا عنك.. اما الذي ستعمل معه فسوف تعرفه من كلمة سر حينما يعطيك شيئا وهو يقول "هدية ابوالنمر".

وقبل ان يودعه من المكتب، فتح ابوالنمر درجا واخرج منه مظروفا ناوله لعمر.. وعندما فتحه، وجد بداخله 200 شيكل نقدا قال له ابو النمر انها قد

تلزمه في طريق العودة الى البيت، ثم طلب منه التوقيع على ورقة كانت جاهزة... ووقع.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع عشر

خروج نعيم

على غير عادته منذ ان كشف امام غسان قبل خمسة اشهر عن الجريمة التي ارتكبها بحق اخيه الدكتور جليل، ولم يخاطبه بعدها سوى بنظرات العيون المتبادلة .. توجه نعيم في ذلك اليوم من أواسط شهر آب اثناء فورة الصباح نحو النخلة حيث كان غسان واقفا ليبادره بالقول:

– اعلم ان كل مطر العالم لن يغسل العار الذي جلبته على نفسي.. ولكني لا اريد الخروج من هنا قبل ان تسمع مني شيئا يريح ضميري من العذاب والندم.. وربما يخرجك من حالة الحزن التي لم تفارقك منذ ذلك اليوم.

وقبل ان يدير غسان وجهه للناحية الاخرى اكمل نعيم وهو يتحرك بنفس الاتجاه:

obeikandl.com

– لقد طلبت مني شيئا.. وستسمع باني فعلته.

ثم اخرج من جيبه ورقة صغيرة مثل تلك التي ضبطت معه يوم انكشافه اول مرة وهو يقول:

– هذه الورقة سارسلها الى الضابط الان كي يخرجني من هنا.. واعدك بانه بعد خروجي ستسمع ما يعادل خسارتنا جميعا بالدكتور جليل.

لحظتها عادت عيني غسان لتقع على عيني نعيم اللتين كانت تلتمعان باصرار من نوع غريب وهو يؤكد ما كان يقوله بهز رأسه عدة مرات.. ثم قال:

• الدكتور جليل مضى شهيدا.. المهم ما ستفعله من اجل شعبه ان كنت صادقا فيما تقول.

ورد نعيم:

– بل اني صادق كل الصدق.. وقد رسمت الخطة جيدا طوال الشهور الماضية، وحددت الهدف، ولكني اتمنى قبل كل ذلك ان اسمع منك بالتحديد انك سامحتني.

لكن غسان تردد كثيرا في الاجابة.. وظل صامتا لبرهة وعينيه ما زالتا تتحاوران بلغة الشك مع عيني نعيم قبل ان يقول:

• السماح ليس مجرد كلمة.. وطالما اني اراك امامي فان شفتاي لا تقدران على النطق بها..

وكان لوقع ذلك اثره في نفس نعيم، لكنه لم يلح اكثر وهو يتراجع الى الخلف باتجاه ان يذهب لاحضار كرة السلة، وانما اكتفى بترديد ما سبق ان قاله لغسان بلهجة مؤكدة:

– سيعادل خسارتنا بالدكتور نعيم.

اما الخطة التي حملتها الكرة وهو يقذفها نحو الجهة الاخرى في ذلك اليوم، فقد بدأت برسالة موجهة الى ابوالنمر يبلغه فيها انه حصل على معلومات مهمة قد تتطلب ان يسافر هو او عميل آخر الى تونس باقصى سرعة.

وعندما سأله ابوالنمر عن تلك المعلومات المهمة بعد ان اخرجه من السجن

obeikandi.com

تحت غطاء نقله الى معتقل آخر قال له نعيم:

• يبدو ان عميلنا موسى هناك في خطر.. فقد سمعت اسمه يتداول بين المعتقلين، وهم يجمعون عنه معلومات عن الفترة التي قضاها معهم في معتقل عسقلان، ويسألون ان كان احد آخر من المعتقلات الاخرى يعرف عنه شيئا..

وبعد برهة اطرق فيها أبوالنمر الذي كان جالسا في مكتبه في مبنى المقاطعة في نابلس وهو يفكر رد قائلا:

– ولكن آخر تقرير ورد منه قبل اسبوعين لم يكن يشير الى شيء.. هل انت متأكد من انهم يسألون عن موسى نفسه وليس عن موسى آخر؟

ورد نعيم:

• نعم هو بنفسه.. فقد ذكروا اسم ابوجهاد وهم يسألون عنه.. وابوجهاد اغتيل في تونس بعد شهرين من وصول موسى هناك، وكما تعلم فان موسى من افراد شبكتي القدامى، ويبدو ان السؤال عنه ورد من قيادة التنظيم في الخارج منذ يومين فقط اثناء الزيارة.

ورد ابوالنمر وكان ما زال يفكر:

– ولماذا فكرت في تونس؟

ورد نعيم:

• رأيت ان الحق به قبل فوات الاوان، فلو انكشف موسى واعترف، فان الكثير من شبكاتنا المحلية قد تسقط.

وبدا ان ابوالنمر بدأ يتفهم ما كان نعيم يفكر به، والذي تابع قائلا:

– ربما اكون الوحيد الذي يعرفه شخصياً، وهذا يسهل الامور لسرعة التصرف.. وان رأيت ارسال شخص آخر فالقرار لك.

لكن ابوالنمر لم يعطه قرارا في تلك اللحظة..وانما طلب منه كتابة تقرير عن كل ما جرى بشأن السؤال عن موسى في المعتقل.. ومن اي قسم بدأ السؤال عنه.. والمعلومات التي قيلت عنه.. وطلب ان يراه في اليوم التالي لابلاغه القرار.

وقبل ان يخرج نعيم من الباب، عاد مرة اخرى ليقول:

obeikandl.com

– وارجو ان يكون مسدسي جاهزاً.. وقد احتاج الى لوازم اخرى ان وافقت على سفري الى تونس.. وسوف احضرها مكتوبة معي غداً.

ونجحت خطة نعيم..

ففي اليوم التالي عندما ذهب الى ابوالنمر ابلغه بانه جرى التصرف فعلاً بموضوع موسى.. وجرى سحبه في الليل بطائرة وصلت الى قبرص، وهو هناك الان.. وما عاد هناك من داع لسفره.. أأما مهمته الجديدة التي ابلغها اليه وهو يسلمه مسدساً مع الطلقات فهي متابعة جمع أية معلومات عن مهندس كهربائي اسمه يحيى عبداللطيف عياش، وهو من قرية رافات.

وكرر ابوالنمر وهو يبلغه بالمعلومات المتوفرة لديه عدة مرات للتأكيد:

– يهمنا جدا أمر هذا الرجل..

obeikandl.com

الفصل الثامن عشر

خروج عمر

انطلقت الزغاريد قوية وسرعان من انتشر الخبر ..

فقد خرج عمر من السجن..

وبدموع من الفرح كابدت كي لا تراها زوجة خالها التي نقلت اليها الخبر، كادت ولاء أن تركض حافية اليه من منزل أخوالها لولا أنها تذكرت تعليمات خالها حسام بان لا تحاول الاقتراب منه أيا كان السبب..

فمنذ ان علمت بانهم جاءوا لاعتقاله في تلك الليلة وهي تصارع ندماً ظل يمزقها من الداخل طوال فترة اعتقاله.. ولسبب ما لم تستطع ابدا ان تفسره، ظلت تحاول اقناع نفسها بان في الأمر حكاية اخرى لا يصدقها قلبها وان صدقها الجميع.. فهي لا تنسى ذلك اليوم الذي اندفعت فيه بكل

obeikandl.com

كيانها نحوه.. ولا تغيب عنها عيونه التي تراقصت فرحاً وهو يمد يده نحوها ليتأكد من انه لا يعيش حلماً.. وما كانت اية كلمة من رسالته التي انحفرت عميقا تنمحي من رأسها..

لكنها لا تغفر لنفسها لماذا تركت أوامر خالها حسام تطغى على مشاعرها دون أن تحاول التفكير ولو للحظة كيف انقلب كل ذلك الحب الجارف الى ازدراء واحتقار..

أما هناك.. فكان شعبان أول من قدم الى بيت عمر للتهنئة بخروجه من السجن، كما قدم الى البيت آخرون من القرية، وطوال المدة التي ظل فيها عمر جالسا بصمت دون ان يرى أحداً من التنظيم بينهم، كان الحديث جله منصباً على اخبار العراق والكويت، والاخبار التي تتوارد عن طرد فلسطينيين من دول الخليج، واعلان بعض الدول وقف مساعدتها عن منظمة التحرير، وموقف ابو اياد الرافض للغزو العراقي، وما ينتظر الفلسطينيين بعد هذه الاحداث التي اعلنت واشنطن على اثرها عن تجفيف منابع تمويل منظمة التحرير، وترك ابوعمار يواجه الاعصار القادم على شعبه وانتفاضته منفرداً.

وقبل ان يخرج من منزل عمر، همس شعبان في اذن عمر بانه يريد ان يراه في اليوم التالي للاحتفال بخروجه من السجن.

لكن عمر تعمد ان يظل ملازماً منزله ثلاثة أيام متتالية رغبة في التمويه من جهة، وبانتظار ان يعرف من هو الشخص الذي سيرسله اليه ابوالنمر.

وفي عصر اليوم الرابع توقف شعبان بسيارته أمام المنزل طالبا من عمر اصطحابه الى "مشوار" قصير، فوافق عمر، وكان المشوار قصيرا بالفعل، لكنه كان مؤلما أيضا..

فما ان تحرك شعبان بسيارته قليلا حتى ظهرت ولاء وهي واقفة قرب منزلها تتحدث مع إحدى الجارات.. فارتجت أوصاله.. ولم يستطع إسقاط ناظريه عنها رغم أنها لم تره وهو يعبر بالسيارة من جانبها..

وما ان خرجا من حدود القرية حتى طلب شعبان من عمر ان يخبره بكل ما حدث من يوم اعتقاله حتى يوم الافراج عنه..

ورغم ان صورة ولاء ظلت عالقة في راسه ببنطالها "الجينز" وبلوزتها

الصفراء المزركشة وشعرها الداكن الذي كان يطيره الهواء، لكنه بسرعة البديهة تنبه الى أن شعبان ربما كان يريد استدراجه الى إختبار، فراح يتحدث عن كل شيء عدا ما دار بينه وبين ابوالنمر، وردد ما طلب منه ابوالنمر ان يقوله في حال سؤال كهذا بالضبط. وعندما انتهى من روايته، طلب شعبان منه ان يفتح صندوق السيارة الذي امامه.. ففعل.. وطلب منه اخراج مظروف كان مكتوبا عليه اسمه.. ففعل.. وعندما فتحه وجد به مبلغا من المال لم يحصه وهو ينظر مستوضحاً نحو شعبان، والذي رد عليه:

– "هدية ابو النمر"

وقبل ان يمتزج شعور داخلي غامر بالنصر بقسمات جاهد فيها عمر ان يبدو مندهشاً، اكمل شعبان:

• من هنا نبدأ.. ومن دون اية اسئلة.. أول ما يريده منك ابو النمر تقرير كامل عن كل الفترة التي عملت فيها مع التنظيم، وبعدها ننتقل للخطوة الثانية.

ورد عمر وما زالت قسمات الدهشه تعلو وجهه:

– ابو النمر؟ هل انت الذي..؟

ولم يكمل حتى هز شعبان رأسه بالايجاب، ثم قال وهو يلتفت نحوه من مقعده وراء عجلة القيادة:

– الآن كل شيء واضح.. متى يكون التقرير جاهزا؟ هل تسلمني إياه غداً؟

وظل عمر صامتاً كمن اخذته المفاجأة، لكنه في حقيقة الامر شعر بمأزق التوقيت وخطورة الموقف.. ومن دون ان يغير من ردة فعله على اكتشاف أول الغيث بأن شعبان متورط فعلا مع الشاباك قال:

– ربما لا استطيع الليلة.. فقد اخذتني المفاجأة حقاً.. وما زلت مضطرباً.

ورد شعبان:

• حتى تعود للبيت تكون قد هدأت.. وعموماً، لا مانع، سامنحك يوماً اضافياً ويمكنك تسليمه بعد غد.

ورد عمر:

– حسناً..سابذل جهدي كي انجزه الليلة.. ولكن ماذا تريد ان اكتب فيه؟

ورد شعبان:

• كل شيء عن علاقتك بالتنظيم.. متى بدأت.. وكيف؟ من جندك؟ من كان مسؤولك في الخلية ومن ينقلل التعليمات؟ ومن كان يعمل معك في الوسط الطلابي؟ وما هي العمليات التي قمت بها؟ وما هي العمليات التي تعرفها؟ ومن الذي نفذ تلك العمليات؟ ومتى؟ وماذا تعرف عن المطاردين؟ عددهم؟ من اي مدن وقرى؟ وما تعرفه زيادة عن ذلك.

وسأل عمر شعبان ان كان لديه قلم في السيارة ليدون ما طلبه منه كي لا ينسى شيئاً، فاخرج شعبان قلماً من جيبه وقدمه اليه، وعلى غلاف المظروف دون عمر كل شيء طلبه شعبان بخط متناه في الصغر ثم راح يشطب على كل ما كتب بحيث لا تظهر الكلمات واضحة ومفهومة الا له كما فسر لشعبان..والذي ابدى اعجابا بهذا الحرص في العمل منذ البداية.

وفي طريق عودتهما الى القرية، طلب عمر من شعبان ان ينزله في السوق ليكمل الطريق سيراً على الاقدام من باب الحيطة والحذر.

وما ان تأكد من ان سيارة شعبان قد ابتعدت وغابت عن انظاره حتى ركض مسرعاً باتجاه بقالة ابويوسف .. وهو رجل بسيط من الفلاحين جاوز الستين من عمره، لكنه ما زال مصرا على ارتداء "القمباز".. الذي يسميه البعض "روزة" او "دماية".. والمقلم بخطوط صفراء ذهبية تتخللها خطوط بيضاء على حوافها خط اسود رفيعا، ويحزمه من الوسط بحزام جلدي اسود عريضا.. وعلى رأسه عقال أسود صنع من صوف الغنم فوق "حطة" الصيف البيضاء.. .. وكان عنده بعض الزبائن، فسأله على الفور:

• عندك "فسيخ"؟

وبدا السؤال غريبا على الزبائن الذين اتجهت كل ابصارهم نحو عمر، لكن ذلك لم يثر ابويوسف والذي حافظ على هدوءه وهو يرد:

– اليوم كلا.. ولكن مساء الغد انشاء الله.

ثم خرج متجهاً الى البيت وهو يفكر بما سيفعله مع هذه الورطة.

الفصل التاسع عشر

ليلة في طلوزة

اقتربت الساعة من الثانية صباحا وعمر يتقلب في فراشه دون ان يغمض له جفن.. وبين كل فترة واخرى كان يحاول فيها النوم، كان يغوص في التفكير بما يمكن ان يتحمل عنه المسؤولية لما سيضطر الى كتابته بنفسه في التقرير لو ان الرسالة لم تصل الى فارس، او لو حدث اي سبب منع ابو يوسف من توصيلها، او اذا كان فارس في منطقة بعيدة ولا يمكنه مقابلته في مكان قريب خلال هذه المدة القصيرة..

لكن ما كان يفزعه هو ان يقع في خطأ فادح لو كتب التقرير بنفسه.. فالمسألة اكبر منه بكثير.. والمطلوب منه كثير ايضاً.. وابو النمر ينتظر بالتأكيد ولو معلومة واحدة لم يعرف بها عملاؤه او جهاز مخابراته من

obeikandl.com

قبل.. فالاسماء معروفة لديهم بالواحد، والعمليات، معروفة بمواقع تنفيذها، وربما اسم كل من نفذ واحدة منها.. واعدامات العملاء.. فهناك من كان يشاهد علناً عند تنفيذ الحكم بالرصاص او الشنق.

كما ان وضعه في التنظيم ما كان يسمح له بمعرفة اكثر ما يعرفه اي عضو آخر في موقعه وطبقا للمهام التي كان يكلف بها..

ورغم ان فارس قريب للعائلة من بعيد، الا انه كان يتعامل معه كقائد ينفذ اوامره مثل أي جندي في جيش..

وقد حاول فيما تبقى من تلك الليلة ان ينهض اكثر من مرة ليكتب شيئا يتخيله ولا يخطر على بال ابوالنمر او شعبان ان يعرفه.. لكنه ما كان يكتب اول ورقة او ورقتين من المعلومات المعروفة ليدخل منها الى ذلك الشيء غير المعروف.. فيمزق ما كتب قبل ان يذهب الى الخارج لحرقه كي لا تقع حتى مجرد قطعة منها بيد احد من اهله فيزيد الوضع تعقيدا.

وحتى ظهيرة اليوم التالي.. ظل عمر يشعر بان الوقت يمضي بثقل لم يألفه من قبل.. فعقارب الساعة كان يراها كأنما لا تتحرك.. ودقاتها مثل مطرقة كانت تضرب رأسه بوتيرة بطيئة منتظمة.. ومع ذلك ظل مصمماً على البقاء في المنزل منتظراً حلول العصر ليذهب رأسا الى ابي يوسف وأمله ان يجد التعليمات قد وصلت عنده.

لكن ابويوسف الذي كان وحيداً في بقالته عندما وصل عمر هز رأسه بالنفي قبل ان يجيب:

• ربما يصل الرد بين لحظة واخرى.. من جهتي بعثت الرسالة من ليلة البارحة.

وعند المغرب وجد عمر عذراً امام اهله للذهاب الى السوق والعودة باسرع ما يمكنه..

لكن التعليمات لم تكن قد وصلت عند ابي يوسف بعد.

وعندما جاوزت الساعة السابعة والنصف.. أدرك عمر انه صار في مواجهة التقرير وحيدا، ولو واصل الانتظار اكثر فقد يفقد فرصة التخيل والتفكير مرتين او ثلاثا.. او ربما اكثر من ذلك قبل ان يحل صباح اليوم

التالي ليكون جاهزا امام شعبان.. فكان عليه ان يتصرف بنفسه بكل ما لديه ذكاء ومهارة.. وبالحد الذي يقدره من حجم هذه المسؤولية التي كان يراها اكبر من قدرته على تحملها منفردا بالنيابة عن التنظيم كله..

واول شيء فكر فيه هو اختراع عمليتين وهميتين من صنع خياله على اساس انه نفذهما بنفسه لتكونا محورا للتقرير.. واخترع لذلك اسمين حركيين وهميين قاما بتكليفه في العمليتين، وانهما من ارشداه الى مكان الاسلحة والمتفجرات التي استخدمهما، والمكان الذي ترك فيه كل شيء بعد ذلك كي ياتي احد من بعده لنقلها..

ومع انه تذكر علميات لم يكتشف منفذيها بعد، لكنه حار في معالجة ان يكون المنفذ شخص واحد، لان معظم العمليات كان يشارك فيها اكثر من عنصر.. وكلما حاول التفكير اكثر في نسج الحكاية من الخيال كلما لاح له الطريق مسدودا وبان امره قد ينكشف غدا امام شعبان عندما يشعر بان اختياره لم يكن موفقا، ولا يعرف ما الذي سيحل به بعد ذلك من قبل ابوالنمر.

وفي خضم ارتباكه وحيرته.. جاءه الفرج اخيرا عندما سمع صوتا على الباب يسأل والدته عنه.. وعندما خرج من غرفته مستطلعا، وجد احد زملائه من الطلاب من اهل القرية يحمل بيده كتابا تذرع بانه يريد ان يعيده اليه وسؤاله عن بعض الملاحظات.. وعندما اختليا في الغرفة.. بادره ذلك الزائر بالقول:

• انطلق فورا الى لفة كرم اللوز عند مدخل القرية.. ستجد هناك سيارة بانتظارك.

ثم خرج الطالب من الباب..

اما عمر، فاغلق باب الغرفة من الداخل، وفتح نافذة غرفته ثم قفز منها وراح يركض باقصى سرعة متستراً بالليل ووجهه نحو كرم اللوز الذي يبعد نحو 1300 متر من موقع منزله.. وعندما وصل وهو يكاد يسقط من طوله من التعب واللهاث، وجد سيارة مطفأة الانوار سرعان ما دس نفسه فيها حتى من دون ان يتفحص احدا من الموجودين فيها، ثم انطلق الجميع

باتجاه وادي الباذان حيث توقفت السيارة خلف منزل على الطريق خرج منه احدهم على الفور ليدير دراجة نارية صعد عليها عمر من وراءه لينطلقا عبر طريق وعر الى طلوزة حيث كان فارس ينتظره في بيت مهجور في أحد البساتين هناك مع ثلاثة ممن كانوا معه في المغارة عندما كلفه بالعملية.

وما ان دخل عمر ذلك المنزل بعد ان عبرت بهم الدراجة جدولاً مائياً تناثرت فيه الكثير من جذوع الاشجار المكسرة حتى بادره فارس من زاوية في الغرفة كانت تضيئها "لمبة كاز" بنور خافت:

• ماذا لديك؟

وقبل ان يفعل اي شيء آخر... راح عمر يروي بالتفصيل كل ما حدث معه منذ آخر يوم التقى فيه فارس مع افراد مجموعته المطاردين في المغارة، وبحرص شديد على ان لا تفوته اية معلومة كان يعتقد بانها مهمة او غير مهمة، تحدث مطولاً عن ظروف اعتقاله، وتفاصيل ما جرى منذ اللحظة التي قدموا فيها الى البيت حتى لحظة خروجه بعد لقاءه بابي النمر، وبعده بشعبان في اليوم السابق الذي طلب منه كتابة تقرير مفصل عن علاقته بالتنظيم.

ثم اخرج ورقة كان قد كتب فيها المطلوب منه على شكل قائمة بحروف واضحة وسلمها لفارس الذي راح يتأملها ملياً قبل ان تتنقل على التوالي الى الثلاثة الباقين الذين راح كل منهم يتأملها بشكل معمق.

وفيما راحت عيناه تتابعان بعض الابتسامات التي كانت تبدر من القياديين الاخرين أحيانا، وعلائم الدهشة التي كانت تنطبع على وجوههم في أحيان اخرى وهم يطالعون قائمة المطلوب للتقرير، أخرج عمر من جيب آخر مظروفا آخر ناوله لفارس وهو يقول:

• وهذه هي كل المبالغ التي استلمتها من ابوالنمر وشعبان.

غير ان فارس الذي ابقى المظروف على حاله في يده توجه للجميع بعدها قائلاً:

• اذن، تأكدنا الآن ان شعبان عميل، وهذا اول الحصاد، والمشكلة الآن مع التقرير.. ما رأيكم؟

ورد احدهم:

• تستمر الخطة، اقتحام شبكة شعبان ومعرفة المتورطين فيها.

وقال آخر:

• احيي شجاعة عمر، لكن ماذا لو انكشف امره فعلاً في المرحلة التالية؟ التقرير أول الاختبارات.. وقد لا يكون آخرها قبل ان يتمكن من التقدم خطوة اخرى للامام.

وكان رأي الثالث مع ان تستمر الخطة، ولكن مع توفير حماية ومتابعة عن قرب لعمر كي لا يقع فريسة لشعبان.

وكذلك كان رأي فارس.. فالخطة لم توضع كي تنهى عند اول اختبار وتحويل عمر الى مطارد جديد.. وكان المهم عنده هو النفاذ الى المرحلة الثانية، وكشف بقية شبكة العملاء ذوي العلاقة بدائرة شعبان، ومن وراء ذلك يستطيع التنظيم الحصول على معلومات تحمي اعضاءه.. ولذلك قال:

• يجب ان يكون التقرير ذو مصداقية عالية، وبافضل مما يتوقعه شعبان او ابوالنمر.

ووافق الجميع على ذلك، كما وافقوا على اقتراح فارس بان يتضمن التقرير عمليات نفذت فعلاً مع تغيير اسماء منفذيها الحقيقيين عدا الذين اعتقل منهم ويمضون احكاماً عالية في السجن، وبالتالي لن يؤثر ذلك عليهم كثيرا لو عوقبوا من جديد بشأنها.

وكانت الاوراق والاقلام جاهزة..

وراح فارس يملي على عمر ما راح يكتبه بخط يده امام المجتمعين حتى انجز ما يزيد عن خمس عشرة صفحة انصب كل التركيز فيها على ذكر عمليات كانت لها قيمتها، وبعضها كانت موجعة جدا للاحتلال، واسماء من نفذوها ومن بينهم اشخاص حقيقيين، وآخرين وهميين لم يكن لهم وجود ابداً الا في خيال تلك اللحظة التي كان عمر يواصل فيها كتابة ما يملى عليه من فارس.

وكان الوقت لا يفصله عن صبيحة اليوم التالي سوى بضع ساعات، استغل فارس بعضها لاجراء تعديل على طريقة التواصل مع عمر عن طريق

ابويوسف في ايام ومواعيد محددة لكنها تختلف وفق نظام اتفق عليه. كما اعطاه دليلاً مصغراً من بضع صفحات يسهل عليه اخفاؤه لتشفير الرسائل التي سيرسلها من تلك اللحظة فصاعداً الى فارس عن طريق ابويوسف.

ولان الوقت كاد ان يعانق اطلالة الفجر، فقد اقترح فارس ان يمضي عمر مع الشخص الذي احضره على الدراجة والذي كان ما زال منتظرا مع الملثمين في الخارج، ثم يتجه صباحاً بسيارة اجرة الى نابلس ويتصل مع شعبان وقت الضحى من اي مكان فيها ليتفقا على مكان للقاء خارج القرية مدعياً انه سبقه في الخروج منها لهذا السبب.

وكان اللقاء بمحل حلويات اعتاد ان يلتقي فيه القرويون، وعندما دخل شعبان نهض عمر من مكانه واتجه اليه متعمداً ان يعانقه في مدخل المحل كما لو انهما صديقان لم يريا بعضهما، واثناء ذلك دس التقرير في جيب شعبان الذي شعر بذلك، ثم خرج تاركا شعبان وراءه في المحل وهو يقول بصوت كان يريد ان يسمعه من كان في المكان:

• هناك من ينتظرني.. سأذهب واحاول احضاره.. وان تاخرت.. فمن الضروري ان اراك اليوم قبل ان تعود الى القرية.

obeikandl.com

الفصل العشرون

العودة إلى التنظيم

في الايام الخمس التي تلت، تعمد عمر ان يلازم البيت معظم الوقت بعد العودة من المدرسة، كما تعمد ان لا يلتقي بشعبانٍ قبل اسبوع على الاقل من تسليمه التقرير.. ومن جانبه تعمد شعبان ايضاً ان لا يلتقيه قبل استلامه معلومات جديدة من ابوالنمر بشأن الخطوة التالية مع عمر، واثناء ذلك، ظل عمر منهمكا في التدرب على دليل "الشيفرة" المصغر الذي اعطاه اياه فارس حتى اتقنه.

وفي اليوم الاخير، ظهر نجم سهيل لامعاً في السماء، وبدأت حرارة "آب اللهاب" في الانكسار، واعتدل الجو، وبدأت رؤوس "الكماة" التي يسميها القريون بـ"الفقع" تنبت حول سيقان الاشجار الطالعة من التربة

obeikandl.com

الحمراء فوّاحة برائحتها كلما هطلت زخات متقطعة من المطر الخفيف.

لكن عمر انتابه صبيحة ذلك اليوم الرائع شعور مزدوج من القلق والخوف وهو يسمع بوق سيارة شعبان التي توقفت امام المنزل.. فقد حان وقت الحسم، وليس امامه الا ان يكمل المشوار ايا كانت النتيجة.

بيد انه ما ان جلس في السيارة الى جوار شعبان حتى بدأ شعوره بالقلق يتبدد تدريجيا، فقد شعر بان الجو معتدل الى حد ما ايضاً في السيارة وذلك من ابتسامة الترحيب التي قابله بها شعبان، وسؤاله لعمر بان يختار الوجهة التي يريد في ذلك "المشوار" لان الكلام قد يطول..

وبلهفة المترقب سأل عمر:

• هل وصل التقرير الى ابوالنمر؟

ورد شعبان مبتسما:

• وكان سعيدا به للغاية.

ومرة اخرى راح عمر يحاول كتم الشعور الغامر بالنصر الذي سرى في كيانه بالتخفي وراء قناع من الخوف مما قد يحدث له لو علم التنظيم بامر التقرير.. وراح في محاولة تضليلية يتوسل الى شعبان ان لا يعرف احد غيره بالموضوع، وان لا تبدر منه اية اشارة تدل على انه كان مصدر المعلومات .. مكرراً أمامه اكثر من مرة ان بعض هذه المعلومات لا يعلم بها احد آخر غيره وفارس.. وبالتالي لن يكون صعباً على فارس وعلى التنظيم ان يكتشفوا أمره على الفور. فيعدمونه..

ووافقه شعبان على هذا الحرص ملمحاً الى الخطوة التالية المطلوبة من عمر قائلاً:

– وهذا ما يريده ابوالنمر ايضاً..

وقبل ان يسأله عمر عما يريده ابوالنمر الآن رد شعبان:

• مهمتك ان تعود الى التنظيم مجدداً، وسوف نساعدك على ذلك.

وحاول عمر ان يترجم ما سمعه للتو من شعبان الى لغة يفهمها، فرد متسائلا:

• لم افهم ما تعني؟ كيف اعود للتنظيم وانا مفصول منه؟ وكيف تستطيع مساعدتي في ذلك؟

وكان الجواب جاهزاً عند شعبان:

• مسألة فصلك غير واضحة الاسباب حتى الآن.. ونحن من باب الضغط سنخترع سببا يحرج التنظيم .. فاما ان يصدروا بياناً جديداً يوضح السبب الحقيقي لفصلك بعد ذلك، ولا اظن انهم سيفعلوا، واما ان نجبرهم على اعادة النظر ليتراجعوا عن بيان الفصل ويقدموا لك اعتذارا يعيد لك اعتبارك بعد سجنك وعدم اعترافك عن شيء يضر بالتنظيم. وفي كلتا الحالتين نريد التركيز على فارس ومجموعته.

ورد عمر:

• ولكن هذه الخطة قد لا تنطلي على التنظيم، ومع اني ما زلت اعتقد بان في الامر ضغينة ما، لكني اعتقد بان فارس قد لا يقف الى جانبي ابداً كي لا يحسب ذلك عليه.

– ولكنه كان مسؤولك المباشر في التنظيم.

• صحيح.. ولكنه هو الذي وقع البيان كقائد ميداني للتنظيم.

ورد شعبان:

• عموماً، هو ذا ما يريده ابوالنمر.. والمهم الآن.. هل زارك أحد من التنظيم بعد خروجك من السجن؟

وتريث عمر قليلا وهو يفكر في الاجابة بينما كان يظهر نفسه كمن يستذكر، ثم قال:

– ليس بالتحديد.. ولكن زوجة فارس حضرت للتهنئة مع اولادها في اليوم الثاني لخروجي من السجن وجلست مع والدتي.

وتابع شعبان:

• وهل تحدثت معك او سألتك عن شيء ما؟

وعاد عمر للتفكير موحياً بانه ما زال يستذكر ثم قال:

– سلمت علي فقط.. وسألت اسئلة عادية..

• مثل ماذا؟

ورد عمر:

– لا اتذكر.. لكنها سألت ان كانوا سألوني عن فارس، واجبتها بالنفي.

ورد شعبان:

obeikandl.com

• عظيم.. ربما نستفيد من زوجة فارس لاعادتك الى التنظيم.

ورد عمر مستفسرا:

– كيف.. انها امرأة قوية، حتى "الشاباك" لم يفلح معها.. وانت تعرف ذلك.

ورد شعبان:

• لن يكون الامر على هذا النحو..

– وما قصدك؟

ورد شعبان:

• اريدك ان تبلغها شخصياً بانك اضطررت للكذب بشان سؤالها عن فارس خوفاً من تناثر الكلام أمام الاهل.. ولكنهم سألوا عن أمور مهمة جداً.. وانك تريد ان ترى فارس باسرع وقت لابلاغه بالتفاصيل.

ورد عمر:

• وماذا لو صدقتني وسألتني عن هذا الامر ثم قالت انها قد توصله له من دون حاجتي كي اراه؟

ورد عليه شعبان:

– قل لها ان الامر خطير جداً..وانك تريد ان ترى فارس باسرع وقت لان الموضوع يتعلق بحياته شخصياً وبمصير بكل التنظيم، وانك لا تستطيع اخبارها بمثل هذه الاسرار..وهددها بانها ستتحمل المسؤولية ان لم تفعل ذلك.. واتركها.

ورد عمر:

– حسناً.. وإن تحقق اللقاء، فما هو ذلك الامر المهم جداً والخطير؟

ورد شعبان:

• اذا تحقق اللقاء .. عليك ان تحاول استعادة ثقته فيك، وتخبره انهم رغم ما فعلوه الا انك ظللت طوال فترة التحقيق ملتزماً بتعليمات التنظيم ولم تعترف عن اي احد ممن سألوك عنهم او عن نشاطاتهم.. وبانهم سألوك عن معلومات دقيقة واسماء حقيقية ومواقع سرية يعرفونها يتواجد فيها المطاردين، وبانك ستقدم له تقريرا بذلك بداعي الواجب والانتماء الصادق للتنظيم.. ثم تلفق له حكاية من لقائك بابو النمر.. وبانه اخبرك مثلا بان

obeikandi.com

المخابرات تعرف الاماكن التي يتنقل فيها فارس الان.. واسماء من يرافقه من المطاردين.. وان الجميع تحت المراقبة والرصد .. وانها مسألة وقت لا اكثر لكي يوقعوا به اما اعتقالا او اغتيالا.. وانك حسبما فهمت اثناء التحقيق، فان هناك عملاء مدسوسين في التنظيم، وقد يكونون قريبين من فارس.. وان عليه توخي الحذر بناء على هذه المعلومات.

ورغم ان عمر كان مصغياً بكلتي اذنيه لما كان يقوله شعبان، لكنه كان يفكر باجابة تعزز ثقة شعبان به كمنفذ لاوامره، ثم قال كمن يبدي اعتراضاً على عدم نجاعة هذه المحاولة:

• واين الامر الخطير في هذا؟ واين مبرر تعزيز الثقة؟ فأي شخص يمكن ان ينسج قصة خيالية أفضل من هذه.. لكن ان كانت هناك معلومات قيمة وملموسة فعلا فلربما يصغي لكل ما سيسمعه مني حينئذ.

ورد عليه شعبان:

– صحيح.. لكنك انت الذي كنت سابقا في التنظيم، وحتما ستجد معلومة مهمة تبني عليها الحكاية ليصدقها فارس.

وحاول عمر تكرار المحاولة من جديد:

• كل ما اعرفه كتبته في التقرير.. هل قرأته؟

ورد شعبان:

– تصفحته طبعا للاطلاع قبل ان اوصله الى ابوالنمر. ولكني اريد شيئا لا يعرفه الا فارس وعدد قليل ممن يعرفهم كي يثار الشك في ان هناك جاسوسا بينهم ، وان هذا المندس هو الذي قدم هذه المعلومات الى ابوالنمر.

واجابه عمر:

• يحتاج الامر الى تفكير..

ورد شعبان:

– لا يحتاج الى تفكير.. سوف اعطيك معلومة مهمة

ونظر عمر نحوه منتظراً ما سيقول:

• هل تذكر يوم اعتقال المطارد اياد؟

ورد عمر:

– نعم.. ولكن ما علاقة فارس بالامر؟

واجابه شعبان:

• يومها دخل فارس وإياد وخمسة آخرين من المطاردين القرية، وكنت انا ومجموعة نراقبهم، وعندما جاءت قوات الجيش لاعتقالهم فر الجميع الا إياد الذي كان يستحم، ولم يسعفه ضيق الوقت في الهروب.

ورد عمر:

– حسنا.. وما الذي ساقوله عن هذه الحادثة؟

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي شعبان ثم قال:

• تقول لفارس ان ابوالنمر ذكر امامك هذه الواقعة، وقال انها كانت مجرد ثوان فقط وإلا لكان خمسة آخرين قد اعتقلوا مع اياد.

ورد عمر متذاكياً امام شعبان:

– واترك له امر الشخص السادس مبهماً كي يفكر فيمن قد يكون هو الذي ابلغ عن وصول افراد المجموعة في ذلك الوقت الى القرية.

ورد شعبان مؤيدا:

• بالضبط

واجابه عمر:

– تبدو الحبكة واقعية أكثر، وكي اكسب ثقته سابلغه باني ساتولى التحري عن بقية افراد المجموعة واحداً واحداً بطريقتي، وان اطلعه على ما احصل عليه من معلومات اولاً بأول... هل هذا ما ترمي اليه؟

ورد شعبان وهو ينظر معجباً لما قاله عمر:

• جميل جداً.. طريقتك في التفكير السريع تعجبني. وبهذا الطريقة تتقرب اكثر من فارس، وتعود للتنظيم عن طريقه.

وهز عمر رأسه موافقا.

الفصل الواحد والعشرون

أزمات في الجوار

مرت الايام تباعا بعد ذلك .. والاوضاع تزداد سوءاً وتعقيداً في الخارج..

فقد اعلن العراق ضم الكويت، وربط قضيتها بانسحاب اسرائيل الفوري من الاراضي المحتلة في فلسطين وسوريا ولبنان.. وانسحاب سوريا من لبنان.. وعرض سلاماً مع ايران.. ومع ظهور مقاومة شعبية في الكويت توالت قرارات وعقوبات مجلس الامن الذي طالب العراق بانسحاب فوري غير مشروط لقواته، والسماح للرعايا الاجانب بالمغادرة والافراج عن المختطفين من المقار الدبلوماسية، واعتبر قرار ضمه للكويت باطلا ولاغيا .. واعلن امين عام الجامعة العربية استقالته في ذروة الانقسام العربي في

obeikandl.com

قمة القاهرة.. وقطعت دول الخليج مساعداتها المالية عن منظمة التحرير.

وقريبا من هناك، كانت الاوضاع تزداد تدهوراً في لبنان بين الجنرال عون والجيش السوري الذي ساند في "حرب الالغاء"..

وفي الايام نفسها انعقدت قمة امريكية–سوفياتية في هلسنكي حذرت العراق من عواقب غزوه للكويت وطالبت بعودة الحكم الشرعي اليها مع توالي اعلانات الاستقلال في تركمانستان وطاجيكستان وارمينيا منذرة بسقوط وشيك للجمهوريات التي تعنونت باسم الاتحاد السوفياتي لاكثر من 70 عاما.

واثناء ذلك ظل شعبان ينتظر جواباً من عمر عن أي جديد بشأن فارس.. ولم يكن لدى عمر ما يقوله لشعبان الا انه ارسل الرسالة بالطريقة التي كان يتبعها من قبل مع فارس قبل فصله من التنظيم، وانه ما زال ينتظر ردا منه، لكنه نجح اثناء ذلك في دفع شعبان الى ان يكشف امامه ثلاثة عملاء جدد من افراد الشبكة وهم حاتم وعبدالقادر وشخص ثالث كان عنصر المفاجأة في ذلك اللقاء وهو سعيد، العنصر الذي يعرفه عنصراً مسؤولاً في التنظيم.

كان ذلك في يوم طلب شعبان من عمر ان يذهب الى منزله في وقت محدد.. وعندما وصل كان الثلاثة قد سبقوه الى هناك وجلسوا ينتظرون في غرفة جانبية بعيدة عن بقية غرف المنزل وتطل على فنائه الخلفي..

وعندما اكتمل الحضور بوصوله، قدم شعبان لكل واحد ورقة وقلماً ثم اخرج ورقة من جيبه كانت تضم ثمانية وعشرين اسماً لرجال ونساء من البلدة.. متزوجون ومطلقات وأرامل وشبان وفتيات وبعضهم من الاطفال.

وقال شعبان وهو يفتح الورقة:

– هذه لائحة باسماء ثمانية وعشرين شخصاً يمكن اسقاطهم، وأريد ان نتوزع هذه المهمة علينا جميعاً.

ثم راح يقرأ الاسماء والمعلومات المتوفرة عن كل اسم على حدة ليدونها الذي سيكلف من بينهم لاسقاطه.. بعض هؤلاء كانوا ممن يشعرون بالاحباط او عدم احترام الذات.. واحدهم يريد معاقبة شخص أساء إليه

في السابق ولم يقدر على معاقبته بشكل مباشر، وآخر يمر بظروف قاسية أثّرت في مسار حياته.. وواحدة تستبد بها مشاعر قوية من الحقد على اهلها وعلى المجتمع لانها لا تستطيع ان تحيا حياتها بالطريقة التي تريد.. وهناك امرأة تخون زوجها ولا يعرف.. وآخر يحب السيطرة والتملك ويريد الاستيلاء على قطعة ارض تركها اصحابها منذ "النزحة" الى الاردن عام 1967، وطالب شرير يفتعل المشاكل دائما مع زملائه في المدرسة.. وشباب شوهدوا اكثر من مرة في بارات وبيوت دعارة في تل ابيب.. وآخر ساءت احواله المادية الى الحضيض ولا يجد عملاً.. وهناك شخص يحتاج الى رخصة بناء .. وآخرون يمكن تجربة المخدرات معهم.

وعدا مجموعة الاسماء المحددة التي كلف عمر بالعمل على اسقاط اصحابها، فانه راح يحفظ عن ظهر غيب اسم كل شخص آخر، وفي بعض الاحيان كان يبدو كمن يخربش ويرسم اشكالا على ورقته لتشفير المعلومات..

وفي اليوم التالي كانت اسماء العملاء الاربعة، ولائحة الثمانية والعشرين قد وصلت كاملة بقدر كبير من المعلومات التي عرفها عن كل شخص الى فارس عن طريق ابويوسف.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني والعشرون

طبول حرب

" برد تشرين بهرّ المصارين " .

وفي الشوارع كان رماة الحجارة بالايدي و " المقاليع " يخرجون بكثافة وهم يرتدون الملابس الثقيلة.. وكوفيات سوداء وبيضاء، و"شماغات" حمراء تغطي رؤوسهم .. بينما كان بياض أنفاسهم الخارجة مثل السحاب من افواههم يختلط بسواد الدخان المتصاعد من الاطارات المشتعلة.

وبالمقابل، كان الجنود المتمترسين قد ازدادوا عدداً في المدرعات والآليات التي كانوا يطلقون منها الرصاص بكثافة منذ ان اعلن الرئيس الامريكي عن مبادرة تشمل جميع القضايا في الشرق الاوسط لامتصاص ما احدثته مبادرة العراق لسحب قواته من الكويت مقابل انسحاب اسرائيلي متزامن

obeikandl.com

من فلسطين، وآخر سورياً من لبنان، وهو ما زرع أملاً عند الفلسطينيين بانهم باتوا يقتربون اكثر من عتبة التحرير، فراحوا يصعدون بالانتفاضة من جانبهم ايضاً.

ولكن في اليوم الذي ظهر فيه الرئيس العراقي صدام حسين في شوارع الكويت، كان اكبر حصار استهدف بلداً واحداً منذ الحرب العالمية الثانية قد اكتمل براً وبحراً وجواً حول العراق.. فهناك عشرة سفن حربية في مياه الخليج، و24 سفينة في خليج عمان، و13 سفينة في البحر الأحمر، و11 سفينة في البحر الأبيض المتوسط، وطائرات أواكس في تركيا.

وإضافة لمائة الف جندي امريكي من بين قوات 26 دولة تمركزت بمواجهة الحدود مع العراق والكويت، تدفق عشرات الآف الجنود الآخرين القادمين من بريطانيا وايطاليا واسبانيا وفرق أخرى عديدة من بينها مصريون وسوريون وهم يثيرون ببساطيرهم غبار الصحراء لتحرير الكويت.

في اليوم نفسه ادرك العراق ان الامور دخلت مرحلة الجد.. وكذلك الفلسطينيون الذين حسبوا عليه..فاعلن رئيس البرلمان العراقي الاستعداد للانسحاب من الكويت في حال تأكدت مبادرة الرئيس الأمريكي جورج بوش، لكن الرد على ذلك كما اعلنه وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر هو أن المجتمع الدولي صار أكثر استعداداً لعمل عسكري ضد العراق.

اما في تل ابيب.. فقد بدأت طبول الحرب تقرع على الايقاع الامريكي، ووزعت الاقنعة الواقية من الغازات والمواد الكيماوية على الاسرائيليين فقط دون العرب الذين ظلوا منغرسين في اراضيهم منذ نكبة عام 1948.

وبينما كان العالم منهمك في تلك الأزمة، استيقظ الكون يوم الرابع من اكتوبر/تشرين الاول على ألمانيا موحدة، فيما صحا عمر على صوت تناهى شجياً الى مسمعه من خارج غرفته المغلق بابها عليه..

وعندما فتح اذنيه على اتساعهما ليستبين صاحبة هذا الصوت..قفز من سريره وهو لا يدري ما يفعل.. فقد كانت ولاء تحادث اخته.. ومع انه لم يتبين ما كان يدور بينهما بالتحديد.. لكنه ما ان سمع اسمه يخرج

من شفتيها وهي تسأل ان كان ما زال موجودا في غرفته حتى شعر بان كل الدنيا حضرت اليه بكل تألقها في ذلك الصباح حاجبة من ورائها كل الضجيج الذي كانت تثيره عاصفة الحرب القادمة في الأفق من الصحراء.

ومن شدة الشوق واللهفة كاد عمر ان يخرج راكضاً الى ولاء لمعانقتها.. لكنه وهو يمسك بقبضة الباب تنبه الى انه قد افاق لتوه من النوم، فكان شعره الذي راح يمسده باصابع يديه اشعثاً، ووجهه الذي راح يمسحه بكفي يديه ما زال ذابلاً.. وعيناه اللتان احاط بجفنيهما شيء من القذى خرج مغربلاً عندما فركه باصبعيه كانتا ما تزالان غائرتين في محجريها.. لكن كل ذلك لم يمنعه وهو يرتدي على عجل قميصاً يغطي به صدره العاري، وبنطالاً يستر "الشورت" الذي كان نائماً به من ان يخرج كي يراها بعد كل هذا الغياب الطويل.

ومدعياً انه كأنما أخذته المفاجأة من وجودها في المنزل، وقف للحظة في مكانه على الباب .. عيناه بعيناها لا تشيحان عن بعضهما..وخفقات تكاد تنطق من لوعة الفراق .. وعندما تقدمت نحوه للسلام عليه فيما أخته ما زالت واقفة بالقرب منهما..شعر أخيرا بان جبل المعاناة الذي حمله طويلا على كتفيه قد تهاوى مرة واحدة في اللحظة التي سرى فيها دفء اصابعها وهي تلامس أصابع يده التي امتدت نحوها كمن يطلب الصفح.

ولكن قبل ان تدير أخت عمر ظهرها لهما باتجاه المطبخ لاعداد شاي الصباح.. علا صوت بوق سيارة شعبان في الخارج ليسلب منه روعة لحظة الدفء الرائعة تلك.

وبعد قليل من انتظار شعبان، وقبل ان يعرف الى اين ستكون وجهتهما، قال عمر وهو يفتح باب السيارة:

– يبدو انني لن استطيع ان ارى فارس في هذه الايام.

ورد شعبان:

• لماذا؟ هل حصل شيء؟

– كلا.. ولكن الجميع منشغلون بأزمة الكويت.. وقد وصلتني تعليمات من فارس بان انشط لتصعيد المظاهرات والمواجهات.

• وابو النمر يريدنا ايضا ان ننشط أكثر في هذه المرحلة..

– وما عساي ان افعل؟.. انهم لا يسمحون لي حتى الآن بحضور الاجتماعات التنظيمية، والبيان الجديد الذي انتظر اصداره لمحو ما لحق بي من عار لم يصدر بعد.. ومعظم الذين اعرفهم من قبل ما زالوا يتجنبون الحديث معي.. بل ان من بينهم ما زال يشتمني كلما رآني ويتهددني بمصير أسود..

– والاسماء التي كلفت باسقاطها؟ ماذا فعلت بشأنها؟

• بصراحة لم اتمكن من تحقيق اي تقدم حتى الآن.. صحيح انني بدأت التعارف مع من لا اعرفهم منهم.. لكن الجميع كما ترى يستعدون للحرب.. وأزمة الكويت تستقطب اهتمام الجميع.. والمجال ضيق جداً للحركة. ما الذي تنصحني بعمله؟

وصمت شعبان قليلا وهو يفكر ثم قال:

• هذا الوضع لا يعجبني.. ولا يعجب ابوالنمر أيضاً.. وقادة الشبكة طلبوا ان نبحث وضعك بعد ثلاثة أيام في بيتي..

ورد عمر محاولا الحصول على معلومات اكثر:

– قصدك ليلة الجمعة؟

ثم تابع مستفسرا:

– اية ساعة؟

لكن شعبان احبطه في الرد عندما قال:

• ليس مطلوبا منك حضور هذا الاجتماع.. فهناك موضوعات أخرى غير موضوعك يجب علينا ان نبحثها في هذا الوضع، وليس مسموحاً لي اطلاعك عليها دون موافقة ابوالنمر اولا.

– وما الذي يمنع ابوالنمر من الموافقة؟ فانا معك معظم الوقت منذ ان بدأت العمل معك.

ورد شعبان:

• ولكن وضعك الحالي لا يسمح..وسوف نرى ما سنقرره بشأنك، وسوف ابلغك به صباح السبت.

ومع ذلك واصل عمر المحاولة قائلا:

– ألستم مطمئنين لي بعد؟

ورد شعبان:

• هذا عمل مخابرات يا عمر.. الإطمئنان شيء..وما يسمح بمعرفته شيء آخر.. ومن يجب ان يعرف أو من لا يعرف فهو شيء مختلف ايضاً..

وتوقف قليلاً قبل ان يتابع:

– عموما، افعل ما طلبه منك فارس الآن، ولكني أريد منك ان تغطي وجهك بشماغ اسود ونظارة كبيرة وتلبس بنطال "جينز" بلون أخضر داكن وحذاء رياضيا أزرق، وان تكون في صدارة المظاهرات دائما وتحاول التعرف على أكبر عدد من القياديين الميدانيين في المواجهات.

ثم ناوله مظروفا به مبلغا من المال لشراء ما طلبه منه، موضحاً له انه بهذا الزي سوف يتعرف اليه الجنود فلا يتعرضوا اليه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث والعشرون

لحظات حرجة

من بعيد، وقف عمر في العتمة مثل نسور الليل مفتوح العينين يراقب تتابع دخول وليد وعبدالقادر وحاتم واثنين آخرين لم يرهما من قبل الى منزل شعبان.

ومن غرفة تطل على الفناء الخلفي الذي حوله شعبان الى زريبة لتربية الابقار والاغنام، كان النور ينبعث خفيفاً من وراء زجاج النافذة التي ترتفع اكثر من متر ونصف عن الارض، اما السور، فقدر انه لن يكون عالياً بالنسبة له لو فكر في القفز من فوقه لاسترداق السمع .. وهذا ما فعله بعد تفكير بخطة الهروب السريع فيما لو اكتشف امره اثناء القفز الى الزريبة .. لكنه شعر بالاطمئنان عندما وقعت قدماه فوق كومة من الحشائش كان

obeikandl.com

يوجد بالقرب منها عدد من اكياس العلف.. وقبل ان ينهض واقفاً ليتجه نحو النافذة، رتب بعض الاكياس فوق بعضها بشكل يجعل منها سلماً في حالة اضطراره للهرب بسرعة.

غير ان المشكلة التي واجهته بعد ذلك ان النافذة كانت في مستوى أعلى من قدرته على سماع ما يدور في الغرفة لو ظل واقفاً على الارض بطوله أسفل النافذة.. فجال في بصره يميناً ويساراً عله يجد شيئا يصعد فوقه.. وفكر في ان يحضر كيساً او اثنين من اكياس العلف.. لكن الحظ اسعفه حينما وجد بين البهائم صفيحة بدا انها تستعمل للشرب.. فعاد بها الى اسفل النافذة، وعندما صعد عليها وجد انها تكفي لرفع قامته الى مستوى قريب من مستوى النافذة.

وجاءه الصوت واضحا هذه المرة.. فسمعهم يتحدثون اولاً عن مهام لم يسمع بها من قبل، لكن اسم ابوالنمر ذكر خلال ذلك عدة مرات: غضبه من امر ما.. تعليماته بشأن أمر آخر.. تكليف جديد بخصوص اسم او موقع...

كما عرف من مجرى الحديث ان احد الشخصين الاخرين الحاضرين في ذلك الاجتماع يدعى سالم، والآخر احمد، لكنه لم يعرف من اي مدينة او قرية هما.. كما لم يتمكن من رصد اية علامة تدل على هوية اي منهما، غير انه شعر من طريقة حديثهما انهما لا يقلان اهمية عن شعبان ان لم يكونا أهم منه في شبكة اوسع.

وعندما حان وقت الحديث عنه، سمع صوت شعبان اولا يقول:

– ارى ان عمر متجاوب الى حد كبير مع كل ما اطلبه منه، ولكن التنظيم كما يبدو لم يأمن جانبه بعد.. فكل الذين اتصل بهم حتى الان ما زالوا يتعاطون معه بحذر .. والمعلومات التي قدمها لي حتى الان لا تشكل قيمة كبيرة، لكنها ليست قليلة الاهمية ايضا.

ثم سمع صوت سالم يقول:

• المعلومات في هذه المرحلة ليست هي الهدف.. وانما الهدف هو عمر نفسه.. هل انت مقتنع بانه لا يحاول الخداع او التضليل؟..

وتابع قائلا:

• كما فهمت، فانك لا تملك اي مستمسك قوي ضده حتى الان، فكل شيء مبني على قرابتك له وتقييمك الشخصي له .. وهذا لا يكفي.. يجب استكمال عملية الاسقاط كاملة قبل كل شيء.. واعتقد بانك اخطأت يا شعبان عندما عرفته على حاتم وعبدالقادر بهذه السرعة.

ورد شعبان:

• التعليمات جاءتني من ابوالنمر، وقد عملت حسب الاوامر.. وانا لا اعرف بالضبط ما الذي يدور في رأس ابوالنمر.

ورد سالم:

– ومع ذلك ارى انه لا بد من اتمام عملية الاسقاط اولا كي نأمن جانبنا من ناحيته، ولا اعتقد بان ابي النمر سيعترض على ذلك.

ثم سمع صوت احمد متدخلا:

– ما يقوله سالم صحيح، فلكي نتاكد من انه لا يشكل اي خطر علينا، يجب اختبار عمر بمهمة لا علاقة لها بالتنظيم في هذه المرحلة.

ورد شعبان:

• ماذا تقصد؟

وسمع احمد وهو يواصل:

– اخته شابة.. فلنجربه باسقاطها.. او باسقاط احد آخر من افراد عائلته.

وايد سالم ذلك قائلا:

– نعم .. هذا اختبار جيد.. واسقاط اخته هو افضل الخيارات .. ويمكننا استخدام محل ملابس او احذية لعملية الاسقاط.

وادرك عمر الذي كاد ان يتجمد من البرد في مكانه فوق تلك التنكة على الفور ما كان يخطط له سالم واحمد.. فهم يريدون إخراسه بفضح أخته .. بصور او باغتصاب كما هي اساليبهم كي يظل غارقاً في الوحل الى الابد.

اما حاتم وعبدالقادر فلم يسمع لهما صوتا خلال هذا النقاش الذي تشعب فيما بعد الى امور لم يكن عمر يعي منها شيئا .. لكن معظمها كان يدور حول توسيع الشبكة ورصد كل ما يقال عن الحرب القادمة، ورأي الناس بمبادرة

بوش، واذكاء انقسام في المواقف بين فلسطينيي الداخل والخارج.

وكان قد مر من الوقت نحو ثلاث ساعات لم يستطع عمر بعدها التحمل أكثر وهو واقف بثبات، فقد تجمدت اطرافه من شدة البرد مثل صنم جامد فوق تلك الصفيحة وهو يحاول التقاط كل كلمة او جملة كي لا ينساها عندما يعود الى البيت وينقلها الى فارس برسالة مشفرة.

وفي النهاية خذلته ساقاه في لحظة حاول فيها التعلق بيدين لا تكاد اصابعهما تتحرك بحافة النافذة كي يخفف عنهما التعب.. فزلت احداهما عن حافة الصفيحة، وعندما حاول اعادتها الى مكانها بالساق الثانية.. اصطدمت حافتها بالجدار.. وخرج صوت الارتطام قويا في سكون الليل.. وقبل ان يقفز هارباً نحو السور .. كانت أضواء كشافات قوية تضيء كل شيء في المكان على الفور.. وقبل ان يصل الى السور ليقفز عنه من فوق اكياس العلف التي اعدها من قبل.. كان شعبان قد حدد هويته من لون كنزته الرمادي التي كان يرتديها فوق قميص احمر، والذي لم يستبدله منذ لقاءه الاخير به قبل ثلاثة ايام.

وفي اليوم التالي اختفى عمر من القرية..

وعبثا راح شعبان يحاول العثور عليه او معرفة مكانه لعدة ايام مضت بعد ذلك..

وللخروج مما بدا له انه مأزق يعيد كل الامور الى نقطة الصفر، لم يتردد شعبان في النهاية من ابلاغ اهل عمر بان ابنهم عميل، وان حياته قد تكون في خطر من التنظيم.

اما عمر، فقد امضى ما تبقى من تلك الليلة التي انكشف فيها وهو يكتب تقريراً مشفراً بكل ما سمعه في ذلك الاجتماع، وعندما ارتفع صوت المؤذن لصلاة الفجر.. تسلل خارجاً من نافذة غرفته صوب مسجد القرية منتظراً وصول ابويوسف الذي اعتاد ان يؤدي الصلاة فيه فجر كل يوم.. وما ان رآه حتى وضع التقرير في يده وهو يصافحه وهامسا له بان الامر في غاية الاستعجال.. ثم ابتعد عنه راكضاً على الطريق الترابي منتظراً اية سيارة خارجة من القرية كي توصله الى نابلس، ومنها الى وادي الباذان ليختبيء

في منزل صاحب الدراجة النارية الذي اقله الى آخر اجتماع له مع فارس في البيت المهجور في طلوزة.

وفي اليوم الرابع من اختفائه، وقبل حلول المغرب وصلته التعليمات من فارس بواسطة سيارة اجرة توقفت امام المنزل يطلب منه العودة فيها الى القرية.. وان يوافق على كل ما سيطلبه منه شعبان عندما يلتقيه، وان يجيد التصرف.

ورغم ان عمر لم يفهم ما الذي كان فارس يرمي اليه بالضبط، لكنه راح يفكر بما سيقوله لشعبان عندما يلتقيان لتفسير وجوده في زريبة الابقار.. وما الذي سمعه أو الذي لم يسمعه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع والعشرون

خطف شعبان

كان المشهد قاسيا في ذلك اليوم..

فقبل صلاة الظهر، كانت كل المحطات الاذاعية التي استحدثت ابان الانتفاضة تبث الحماس في صفوف الناس وتدعوهم للتعبير عن الغضب في الشوارع.. والتوجه الى القدس حيث كانت تدور مذبحة فجرها اقتحام مجموعة من امناء جبل الهيكل اليهودية المتطرفة الى ساحة المسجد الاقصى لوضع حجر اساس للهيكل الثالث.. وقد دخلت معهم قوات كبيرة من الجنود الساحة كانت تطلق الرصاص من دون تمييز على المصلين..

وعندما عرضت الصور على شاشات التلفاز في المساء.. كانت دماء 21 شهيدا واكثر من 250 جريحا من المصلين الذين تصدوا لهم بالاحذية التي

obeikandl.com

لم يجدوا غيرها للدفاع عن انفسهم قد غطت مسافة مائتي متر في المسجد .. وسالت في كل مكان على الأدراج الواسعة .. ولطخت البلاط الأبيض على امتداد ساحة الحرم الواسعة.. ورسمت على حيطان المسجد خطوطا طويلة قانية نزفتها أياد مدماه .. وخضبت ملابس الممرضات البيضاء .. وبدا الشهداء والجرحى والناجون والمسعفون والصحفيون والجنود كأنهم يسبحون جميعا في بحر من الدماء.

ورغم الدم الذي تدفق حارا في عروق عمر وهو يشاهد الصور، الا انه امضى الايام الخمسة التالية في منزله بانتظار ان يأتيه شعبان وفقا لتعليمات فارس.. لكن شعبان لم يفعل، وهو ما جعل عمر يحزم أمره ويقرر الذهاب اليه بنفسه.. وكانت حجته في ذلك معاتبة شعبان على فعلته الشنيعة بفضح امره كعميل امام عائلته قبل ان يترك له مجالا لشعبان لتفسير سبب وجوده في الزريبة.. او يسأله عما كان يفعله هناك؟ او ماذا سمع؟.. واين كان طوال الايام الماضية.

وعندما سأله شعبان الذي استقبله عابساً عند باب البيت عن ذلك رد بهدوء:

• قلت لي بان الاجتماع سيكون عني.. وقدرت أن من حقي ان اعرف ما ما ستقولونه عني أو تقرروه بشأني.. وكنت اريد ان اعرف ما يدور بدافع الفضول. ..وقد جئت كي أعتذر..

وعندما سأله شعبان عما سمعه.. اختار عمر ما كان يدور في الجزء الاخير من الحوار قبل ان ترتطم ساقاه بالصفيحة ثم قال:

– كنتم تتحدثون عن المبادرة الامريكية ولكني لم اكد اسمع شيئا.. فما ان وقفت على الصفيحة حتى صدر الصوت، فهربت خوفا من ان تروني.. لكنك رأيتني.

• ولماذا اختفيت في اليوم التالي؟

– خفت ان تقوم بعمل طائش أو تعرضني لعقاب من ابوالنمر... ولهذا اختفيت.. لكنك سامحك الله فضحت امري في القرية قبل ان تسمع مني.

ومع ذلك ظل شعبان يحاول الحصول على اجابات مقنعة لاسئلة

تفصيلية كثيرة كي يطمئن نفسه بها قبل ان يقول لعمر:

• على أية حال.. اذهب وانتظر التعليمات.. لقد وصل الامر الى ابو النمر.. والقرار عنده.

ومع ان عمر شعر بنوع من الراحة لنجاحه في كسر لهجة الشك التي حاصره شعبان بها من خلال اسئلته العديدة والتي كان يجد لكل منها جواباً مقنعاً.. الا ان الوساوس ظلت تحلق فوق رأسه وهو يشاهد في تلك الليلة على شاشة التلفزيون نهاية "العهد العوني" الذي بدأ في 23 أيلول 1988.

كانت دبابات الجيش السوري تطبق على قصر بعبدا الذي يتحصن فيه الجنرال عون، وطائرات السوخوي السورية تدك القصر بالقنابل، والجنرال الذي وعد اللبنانيين بالتحرير والنصر وتحقيق السيادة والاستقلال، اعلن الاستسلام الكامل في بيان أبكى الكثيرين وأفرح الخصوم، ثم حوصر في السفارة الفرنسية تمهيدا لنفيه.

والعسكريون الذين كانوا تحت امرته توزعوا بين النعوش والسجون السورية، والتحقت غالبيتهم بقيادة العماد إميل لحود بطلب منه، اما جنود اللواء العاشر فاختاروا أن يقاوموا حتى النهاية في منطقة ضهر الوحش، فقتل اكثرهم في تلك المعركة.

وفي سماء آخرى.. كانت طائرات امريكية وبريطانية تحلق في مياه الخليج العربي ومثلها من قاعدة انجرليك التركية في الشمال على دفعات لمراقبة التحركات العسكرية العراقية على الارض وحركة السفن الذاهبة والخارجة من العراق والكويت..

وعلى الارض، تجمعت في جدة نحو الف شخصية كويتية في مؤتمر شعبي من بينهم الوزراء والنواب والمعارضون لاعلان إن سيادة دولة الكويت واستقلالها وسلامة أراضيها مسألة غير قابلة للتفاوض أو المساومة، وللمطالبة بالتنفيذ الكامل لقرارات مؤتمر القمة العربي الطارئ في القاهرة وقرارات مجلس الأمن الدولي التي دعت كلها إلى الانسحاب

الفوري غير المشروط للقوات العراقية من الأراضي الكويتية، وتأكيد الدعم لعودة السلطة الشرعية لدولة الكويت، وطلب التعويض من النظام العراقي عن كل ما ألحقه في الكويت من أضرار، وإعادة تنظيم القوات المسلحة الكويتية لتأخذ مكانها إلى جوار القوات الدولية في الخليج والتي كانت مصادر البنتاجون تؤكد أن حجم القوات الأمريكية فقط من بينها قد تجاوز 200 ألف جندي حتى ذلك اليوم.

وفي عصر اليوم التالي توقفت سيارة شعبان امام منزل عمر طالبا منه مرافقته الى "مشوار" قصير، فاعتقد عمر ان شعبان سينقل اليه تعليمات ابو النمر.. لكنه لم يكن يعرف بان فارس كان قد ارسل رسالة عن طريق مختار القرية الى شعبان يطلب فيها منه ان يحضر عمر اليه الى مكان محدد ليسلمه للتنظيم.

وفي المكان المحدد توقفت سيارة شعبان بعدما ظل صامتاً طوال الطريق ولا يرد على اسئلة عمر الا بكلمة: قريبا ستعرف.

وفجأة ظهر من بين الاشجار عدد من الملثمين وهم يصوبون اسلحتهم باتجاههما.

وقبل ان يدرك عمر ما كان يدور وهو يتألم من ضغط ذراع شعبان حول رقبته بقوة لمنعه من الهرب، أصابته الدهشة عندما التف الملثمون من خلفهما ليمسكوا بشعبان ويطرحونه ارضاً بينما كان يصرخ بان في الامر لبساً.. وان المقصود هو تسليم عمر الى فارس، ولكن كل صرخاته كانت تتلاشى وتتبدد بين أغصان الاشجار التي كانت تستعد لهجعة جديدة من ليل قارس البرودة.

وما زاد من هياج شعبان اكثر وهو يتلوى كالافعى بين أيدي الملثمين وهم يدفعونه داخل السيارة هو ادراكه اخيراً بانه وقع في كمين.. وان عمر الذي سمع الملثمين يطلبون منه الابتعاد عن المكان ما كان سوى الطعم الذي استخدمه فارس في هذه العملية لاختطافه.

الفصل الخامس والعشرون

دموع الندم

لم يكن وقع ما جرى سهلاً على ولاء عندما وصل مسامعها ما روجه شعبان عن عمالة عمر وسعيه لتجنيد آخرين من القرية.. فقد اصابتها الصدمة مجدداً وهي تتصور ان هذا اللغز الكبير الذي اسمه عمر ربما كان يحاول الوصول اليها ايضاً عن طريق الحب لايقاعها فيما هربت منه من منزل والديها.

لكن ما خفف الصدمة التي كادت ان تطرحها ارضا من شدتها تلك البشاشة التي علت محيا خالها حسام وهو يقول حين تحلق الجميع في دائرة حول مائدة العشاء على الارض:

• والله عمر بطل.. عملها

obeikandl.com

وانتظرت ولاء احداً من اخوالها أو أي أحد من الجالسين ان يسأل عما فعله عمر، لكن احداً منهم لم يفعل، فبادرت هي ملهوفة للسؤال:

– وماذا فعل؟

ورد حسام:

• اخترق "الشاباك" وكشف شبكة عملاء.. وقد لا تصدقون لو تعرفون من يرأسها.

لحظتها نظر اليه اخيه الاكبر سائلاً:

– من؟

وتحولت كل عيون الجالسين نحو حسام بينما كادت اللقمة ان تسقط من يد ولاء من شدة الدهشة:

• شعبان

ورد الاسم أكثر من صوت في وقت واحد باستغراب ، ثم اكد حسام ذلك قائلاً:

• نعم .. شعبان ومعه مجموعة عملاء من داخل القرية وخارجها.. والمفاجأة الأخرى ان من بينهم ايضاً سعيد.

وكرر اخوته الاكبر السؤال باستغراب:

– سعيد؟

واكمل حسام:

• نعم .. والمطاردين خطفوا شعبان اليوم.. وأظنه يعترف الآن بينهم في أحد الجبال.

وحاولت ولاء ان تسأل عن مصير عمر.. لكن السؤال توقف في حلقها فيما كان صدرها منشرحاً من سماع ما كان يرويه خالها حسام .. فها ان اللغز انحل اخيراً.. وادركت انها لم تخطيء الاختيار ابداً.. فقد خمنت بفيض مشاعرها الجارف نحوه منذ البداية ان هناك شيئاً ما خطأ.. وها هي تتأكد من كل ذلك اليوم.. وكانت تتمنى لو كان عمر امامها في تلك اللحظة كي يؤنبها بقسوة المحبين وهي تذرف دموع الندم امامه راكعة على ركبتيها.

ومثل تلك الدموع كانت تسيل في تلك الليلة في مكان آخر من عيون

openkanal.com

نعيم..

ففي غرفته وعلى طاولة صغيرة، كانت تلك الدموع تبلل اوراقاً كان يكتبها مشروعاً لرواية عن "توبة عميل".. وكان قد انجز منها حتى ذلك الوقت عدة فصول مهد فيها للخاتمة البطولية التي بدأ رسمها قبيل خروجه من معتقل عسقلان.. خاتمة كان يريد ان تنتهي آخر كلمة منها في اليوم الذي يختمها فيه.

وفي الفصل الذي كان يكتبه في تلك الليلة كان نعيم يحاول اكتشاف نفسه.. ماذا لو لم يكن قد ولد في تلك الارض؟ وماذا لو ولد في زمن آخر؟ وماذا لو لم يكن هناك احتلال؟

واي احتلال؟!

فقد ابصر النور على أحذية الجنود وهم يفرطون في مداهمة البيوت.. ونسفها.. وطرد من فيها.. حتى صارت النساء والاطفال ينامون عند الاقارب.. وصار الشباب ينامون اما في المساجد او عند اصدقائهم.. وعلى حافلات "ايجد" وهي تنقل العمال كالسردين صباح مساء ليعملوا كالعبيد في مصانع "بيت يام" و"حولون" و"بتاح تكفا" و"رمات جان" بأبخس الاجور.. وعلى قوائم الاعتقالات التي لم يسلم منها بيت واحد.. واهانة الكرامات عند الحواجز والمعابر حيث يسلب الحق في الحرية والحركة والتنقل.. ويبصق في الطعام.. وتتوقف حركة طابور طويل من السيارات تحت قيظ الشمس في الاغوار باشارة من حذاء جندي يتفيأ متمددا في الظل .. ويعرى الناس رجالا ونساء واطفالا لا فرق بحجة الامن..

وبحجة الامن سرقوا اثواب النساء الفلسطينات.. وسرقوا "الحمص" و"الفلافل".. ونبشوا الارض ليسرقوا منها التاريخ.. وحفروا باطنها كي يسرقوا منها الماء ويحرمونه على اصحابه.. وراحوا يصوبون الرصاص للتدريب على خزانات المياه على اسطح المنازل كي يحرموا اصحابها من شربة ماء.. وحطموا اشجار الزيتون بالجرافات .. وداست جنازير آلياتهم العسكرية على المزارع والبيوت البلاستيكية.. وحرقوا محاصيل القمح والبرسيم.. واطلقوا الكلاب على النساء.. وحطموا أذرع وسيقان الشبان

بالحجارة.. واشبعوهم ضربا بالبنادق وهم عراة في الشوارع على مرأى الجميع..

احتلال فرض على الناس العبودية والمهانة والقبول باسلوبه في تشكيل الحياة اليومية.. حتى فرق بين الزوج وزوجته.. وكرس النزعات الذاتية على حساب الروابط العائلية والوطنية والقومية.. و نشر المخدرات والرذيلة والشذوذ والامراض.. وخلق التمرد على الاسرة ونشر افكاره الهدامة..

وقتل الناس أيضاً.. مطادرين كانوا ام مدنيين .. اطفالاً.. كباراً.. نساءً.. رجالاً.. لا فرق.. وبالصواريخ غالباً . فهي اسرع فتكاً.. واشد تدميراً.. وأكثر دقة في اصابة الأهداف من سماء لا تغيب عنها الطائرات و"الزنانات"..

قتل من دون قيود ولا تمييز.. وبقواعد اشتباك متحررة من كل القيم والأخلاق والأعراف.. بدءاً من تدمير الاحياء على ساكنيها.. مرورا بتدمير كل ما يدب على الارض وتحتها من حياة. ولا تنتهي فصوله عند استخدام الاسلحة المحرمة دولياً كالفسفور الابيض والقنابل العنقودية وذخائر اليورانيوم المنضب والقنابل التي تصيب بالعمى او التي تشل الاطراف او التي تخلق حالة من حالات الصرع او الصدمة المروعة.

وفي كل ذلك كان نعيم شريكاً..

كان العين التي لا تنام لارضاء ابوالنمر.. ومن اجل حفنة من المال يدسها في جيبه كلما آذى فلسطينيا آخر..

وابوالنمر لم يولد اصلا في فلسطين.. فقد جاء مهاجرا مع اسرته من بولندا بعد حرب حزيران.. وهو لا يعرف ان كل يافطة عبرية في شارع.. وكل اسم لمدينة وبلدة بالعبرية لم يكن له اي تاريخ يزيد عن عمره منذ ان ولد هناك..

وكتب يختم ذلك الفصل من روايته العتيدة:

– يا الله .. ما الذي فعلته بشعبي؟؟

الفصل السادس والعشرون

اعترافات شعبان

عندما أزيلت العصبة عن عينيه .. وجد شعبان نفسه محاطاً بالملثمين في مغارة وقد وقف بينهم فارس، وقد جهّز له قلماً وأوراقاً وجهاز تسجيل وهو يقول:

– اكتب وردد ما تكتبه بصوت مسموع..

ثم اكمل:

• إسمك الكامل، عمرك، عنوانك؟

وحاول شعبان عدم الرضوخ لهذا الاستجواب الذي لم يكن يفهم له سبباً حتى تلك اللحظة، لكن أحد الملثمين وضع فوهة بندقيته ليشعر بها وهي تلمس رأسه.

ثم تابع فارس:

– ليس أسهل من قتلك مثل جرذ في هذا المكان.. ولن يدري بك أحد..ولن يأسف على موتك أحد.. فانت خائن حقير.. ولدينا كل الادلّة...

وحاول شعبان تكرار محاولة الرفض موجها كلامه الى فارس:

• عيب عليك ما تقوله.. أنت تعرف من أنا، وماذا فعلت من أجل التنظيم..

ورد فارس بهدوء:

– نعم.. نعرف الآن بانك سلمت عدداً من قياداته .. وساهمت في قتل العديد من المطاردين.... اكتب بصوت مسموع: إسمك، عمرك، عنوانك؟

وقبل ان يحاول شعبان مجدداً، لم يدر من اين جاءته لكمة قوية أدارت راسه في مكانه، وكان فارس ما زال واقفاً وهو يشير بيده نحو الاوراق وجهاز التسجيل آمرا إياه بالاستجابة من دون اية مضيعة للوقت..

ثم قال:

• كل ماضيك القذر بات معروفاً.. وعلاقتك باغتيال الدكتور جليل.. وكل ما بينك وبين عمر مسجل لدينا..ونعرف كل الشبكة التي تديرها.. حاتم وعبدالقادر وسالم وأحمد ونعيم والسائق عبد السلام والباقين كلهم.. ولائحة الثمانية والعشرين ايضاً.. وهل تريد ان تسمع قصة اعتقال عمر؟.. وابوالنمر؟.. ومحاولة اسقاط أخت عمر؟.. كل ما جرى كان من فعل

التتنظيم يا شعبان .. هيا.. أكتب.

لحظتها ادرك شعبان ان أمره مكشوف تماماً، وانه ربما كان تحت المراقبة منذ زمن طويل.. ونعيم انقطع عن العمل معه بتعليمات ابوالنمر منذ نحو عام ونصف تقريباً حينما اختاره للعمل داخل المعتقلات لأسباب لم يعرفها لكنه علم انها كانت تتعلق بخطر على الشبكة.. والسائق عبدالسلام توفي بحادث انقلاب تدهور سيارته عند منحنى حاد في "طلعة اللِبَن" على طريق القدس قبل اكثر من ثلاث سنوات.. وقتل الدكتور جليل عملية طواها الغموض منذ ستة اعوام وما كان أحد يعرف عن دوره فيها الا ابوالنمر الذي طلب منه اختيار شخصين من افراد شبكته للمشاركة في تنفيذها فاختار لها حاتم وعبدالقادر..

ولكن كيف حصل فارس على هذه المعلومات؟ ومن اين؟

كما ادرك ان عمر نجح في مخادعته كل تلك الفترة عندما ذكر فارس لائحة الثمانية والعشرين، واسمي سالم واحمد.. وانه ما كان في الواقع الا عيناً عليه.. وربما على الشبكة كلها ايضاً، وقد كشف عنها كل شيء عرفه، وان سالم كان محقاً عندما تحدث عن هذه الشكوك.. ولهذا فانه مهما فعل الآن فانه قد لا يخرج من تلك المغارة الا جثة قد تتعفن قبل العثور عليها.

فوجه السؤال الى فارس:

• وهل تضمن حياتي ان اعترفت؟

لكن فارس لم يرد على السؤال.. وانما اعاد تكرار الاشارة بيده لشعبان كي لا يضيع الوقت ويبدأ بالاعتراف.

ولم يكن امام شعبان مفراً في النهاية الا الرضوخ، فهو ان رفض حتى من دون ان يعترف فان ثمن حياته لن يكون اكثر من رصاصة من الرشاش المصوب اسفل رأسه في بطن تلك المغارة التي لا يعرف في اي جبل هي، فراح يكتب بيد مرتعشة ويسجل بصوت مذعور كل ما كان يسأله الملثمون عنه بدءا من عملية تجنيده عام 1977، مرورا بدوره في اغتيال الدكتور جليل، وانتهاء بكل ما دار في اجتماع تلك الليلة التي انكشف فيها عمر كعميل مزدوج كان مكلفاً بمهمة لاختراق شبكته.

وبعدما انتهى من ذلك، جمع فارس الاوراق وأغلق جهاز التسجيل، ثم أخرج منه الشريط ولوّح به امام شعبان قائلاً:

– هذا الشريط.. وهذه الاوراق.. ثمنها رقبتك.. هل تظن بان احداَ سيلومنا الآن لو اعدمناك مثل كلب ضال في هذا الجبل؟

وكانت كل اوصال شعبان ترتعد خوفا وهو يسمع ذلك..فقد خشي ان الملثمين لن يتركوه يخرج حيّاً بعد ان حصلوا منه على اعترافات صريحة بالعمالة والخيانة.. لكن فارس قلب شيئاً من مزاجه المذعور عندما القى له بطوق من النجاة قائلا:

– ومع ذلك سنمنحك فرصة.. ولكن بشرط..

وظل شعبان صامتا وهو يصغي:

• لن يعرف أحد بما جرى، وسوف نحميك ان وافقت على العمل معنا من الآن فصاعداً.. تبلغنا بكل ما يطلبه منك من ابوالنمر.. وتمرر تعليماتنا لينفذها أعضاء الشبكة بالطريقة التي تخدمنا.. وتظل صلتك قائمة مع عمر.. هل فهمت؟

وهز شعبان رأسه المطأطأ نحو الارض وما زال غير مصدق بانه لا يوجد في العرض لعبة يشتتون خلالها ذهنه قبل ان يقتلونه في اية لحظة برصاصة لن يدري من اي اتجاه ستنطلق.. او انه قد يخرج فعلاً من باب المغارة كي يرى الضوء مرة أخرى خارجها.. لكن فارس راح يوضح اكثر من كان يعرضه عليه:

– نحن لن نخسر، وانت لن تربح لو أعدمناك الآن.. ولكن فرصة الحياة التي سنمنحها لك ستفيدك ان أفدت بها شعبك..والأمر بيدك.. وقد وضعت في يدنا دليل بعثك الى جهنم من دون ان تعرف من اين سيأتيك الموت..ماذا قلت؟

وكانت الرسالة واضحة لشعبان: عميل مكشوف منح وقتاً للصلاة قبل تنفيذ الاعدام.. ولم يكن أمامه أفضل من عرض كهذا ليخرج مرة اخرى من هذه المغارة المعتمة الى نور الحياة..

لكنه ما ان عاد الى القرية بعدما اوصله الملثمون الى سيارته في مكان آخر

حتى انقلب على كل ما أتفق عليه.. وراح يشيع في القرية بان فارس اختطفه وعذبه، واجبره على توقيع اعترافات كاذبة تسيء الى سمعته الوطنية.. كما راح يدور على البيوت التي كلف عمر باسقاط ابنائها ليحذرهم منه.. وكانت غايته في كل ذلك ان "يتغدى" بالتنظيم قبل ان "يتعشى" التنظيم به.

ومما كان يعرفه من معلومات، وبمساعدة افراد شبكته نجح شعبان اخيراً في اثارة خلاف عشائري كبير في القرية، وشقها الى مؤيد له ومن بينهم عناصر من التنظيم من عائلة شعبان من واقع ما يعرفون عنه من سمعة وتاريخ في الوطنية، وبين مؤيد للتنظيم ولفارس الذي اضطر اخيراً الى عرض اعترافات شعبان بالصوت والصورة لاظهار الحقيقة.

لكن الخلاف ازداد اتساعاً، ورغم تدخل قيادة الانتفاضة والوجهاء وكبار القرية في محاولة لمصالحة الطرفين، الا ان احداً لم ينجح ازاء تمسك فارس بالادلة التي لديه، وتمسك شعبان بتقديم اعتذار علني من التنظيم عن تشويه صورته الوطنية امام الناس.

كما تدخل ابوالنمر ولكن بطريقة اخرى، فقد عرض على المختار ان ينقل الى فارس رغبته في اللقاء معه في اي مكان يريده لغرض واحد، وهو ان يقنع فارس بالتخلي عن المقاومة وتسليم نفسه مقابل السجن لمدة ستة اشهر لا يطارد بعدها، واما ان يقنعه فارس بغير ذلك، وفي الحالتين تعهد ابوالنمر ان لا يقدم على اعتقاله أو اغتياله. لكن فارس سخر كثيراً من هذا العرض.

– يا الله .. ما الذي فعلته بشعبي؟؟

الفصل السادس والعشرون

اعترافات شعبان

عندما أزيلت العصبة عن عينيه .. وجد شعبان نفسه محاطاً بالملثمين في مغارة وقد وقف بينهم فارس، وقد جهّز له قلماً وأوراقاً وجهاز تسجيل وهو يقول:

– اكتب وردد ما تكتبه بصوت مسموع..

ثم اكمل:

– إسمك الكامل، عمرك، عنوانك؟

وحاول شعبان عدم الرضوخ لهذا الاستجواب الذي لم يكن يفهم له سبباً حتى تلك اللحظة، لكن أحد الملثمين وضع فوهة بندقيته ليشعر

obeikandl.com

بها وهي تلمس رأسه.

ثم تابع فارس:

– ليس أسهل من قتلك مثل جرذ في هذا المكان.. ولن يدري بك أحد..ولن يأسف على موتك أحد.. فانت خائن حقير.. ولدينا كل الادلّة...

وحاول شعبان تكرار محاولة الرفض موجها كلامه الى فارس:

عيب عليك ما تقوله.. أنت تعرف من أنا، وماذا فعلت من أجل التنظيم..

ورد فارس بهدوء:

– نعم.. نعرف الآن بانك سلمت عدداً من قياداته .. وساهمت في قتل العديد من المطاردين.... اكتب بصوت مسموع: إسمك، عمرك، عنوانك؟

وقبل ان يحاول شعبان مجدداً، لم يدر من اين جاءته لكمة قوية أدارت راسه في مكانه، وكان فارس ما زال واقفاً وهو يشير بيده نحو الاوراق وجهاز التسجيل آمرا إياه بالاستجابة من دون اية مضيعة للوقت..

ثم قال:

كل ماضيك القذر بات معروفاً.. وعلاقتك باغتيال الدكتور جليل.. وكل ما بينك وبين عمر مسجل لدينا..ونعرف كل الشبكة التي تديرها.. حاتم وعبدالقادر وسالم وأحمد ونعيم والسائق عبد السلام والباقين كلهم.. ولائحة الثمانية والعشرين ايضاً.. وهل تريد ان تسمع قصة اعتقال عمر؟.. وابوالنمر؟.. ومحاولة اسقاط أخت عمر؟.. كل ما جرى كان من فعل التتنظيم يا شعبان .. هيا.. أكتب.

لحظتها ادرك شعبان ان أمره مكشوف تماماً، وانه ربما كان تحت المراقبة منذ زمن طويل.. ونعيم انقطع عن العمل معه بتعليمات

obeikandl.com

ابوالنمر منذ نحو عام ونصف تقريباً حينما اختاره للعمل داخل المعتقلات لأسباب لم يعرفها لكنه علم انها كانت تتعلق بخطر على الشبكة.. والسائق عبدالسلام توفي بحادث انقلاب تدهور سيارته عند منحنى حاد في "طلعة اللِبَن" على طريق القدس قبل اكثر من ثلاث سنوات.. وقتل الدكتور جليل عملية طواها الغموض منذ ستة اعوام وما كان أحد يعرف عن دوره فيها الا ابوالنمر الذي طلب منه اختيار شخصين من افراد شبكته للمشاركة في تنفيذها فاختار لها حاتم وعبدالقادر..

ولكن كيف حصل فارس على هذه المعلومات؟ ومن اين؟

كما ادرك ان عمر نجح في مخادعته كل تلك الفترة عندما ذكر فارس لائحة الثمانية والعشرين، واسمي سالم واحمد.. وانه ما كان في الواقع الا عيناً عليه.. وربما على الشبكة كلها ايضاً، وقد كشف عنها كل شيء عرفه، وان سالم كان محقاً عندما تحدث عن هذه الشكوك.. ولهذا فانه مهما فعل الآن فانه قد لا يخرج من تلك المغارة الا جثة قد تتعفن قبل العثور عليها.

فوجه السؤال الى فارس:

وهل تضمن حياتي ان اعترفت؟

لكن فارس لم يرد على السؤال.. وانما اعاد تكرار الاشارة بيده لشعبان كي لا يضيع الوقت ويبدأ بالاعتراف.

ولم يكن امام شعبان مفراً في النهاية الا الرضوخ، فهو ان رفض حتى من دون ان يعترف فان ثمن حياته لن يكون اكثر من رصاصة من الرشاش المصوب اسفل رأسه في بطن تلك المغارة التي لا يعرف في اي جبل هي، فراح يكتب بيد مرتعشة ويسجل بصوت مذعور كل ما كان يسأله الملثمون عنه بدءا من عملية تجنيده عام 1977، مرورا بدوره في اغتيال الدكتور جليل، وانتهاء بكل ما دار في اجتماع تلك

الليلة التي انكشف فيها عمر كعميل مزدوج كان مكلفاً بمهمة لاختراق شبكته.

وبعدما انتهى من ذلك، جمع فارس الاوراق وأغلق جهاز التسجيل، ثم أخرج منه الشريط ولوّح به امام شعبان قائلاً:

– هذا الشريط.. وهذه الاوراق.. ثمنها رقبتك.. هل تظن بان احداً سيلومنا الآن لو اعدمناك مثل كلب ضال في هذا الجبل؟

وكانت كل اوصال شعبان ترتعد خوفا وهو يسمع ذلك..فقد خشي ان الملثمين لن يتركوه يخرج حيّاً بعد ان حصلوا منه على اعترافات صريحة بالعمالة والخيانة.. لكن فارس قلب شيئاً من مزاجه المذعور عندما القى له بطوق من النجاة قائلا:

– ومع ذلك سنمنحك فرصة.. ولكن بشرط..

وظل شعبان صامتا وهو يصغي:

لن يعرف أحد بما جرى، وسوف نحميك ان وافقت على العمل معنا من الآن فصاعداً.. تبلغنا بكل ما يطلبه منك من ابوالنمر.. وتمرر تعليماتنا لينفذها أعضاء الشبكة بالطريقة التي تخدمنا.. وتظل صلتك قائمة مع عمر..هل فهمت؟

وهز شعبان رأسه المطأطأ نحو الارض وما زال غير مصدق بانه لا يوجد في العرض لعبة يشتتون خلالها ذهنه قبل ان يقتلونه في اية لحظة برصاصة لن يدري من اي اتجاه ستنطلق.. او انه قد يخرج فعلاً من باب المغارة كي يرى الضوء مرة أخرى خارجها.. لكن فارس راح يوضح اكثر من كان يعرضه عليه:

– نحن لن نخسر، وانت لن تربح لو أعدمناك الآن.. ولكن فرصة الحياة التي سنمنحها لك ستفيدك ان أفدت بها شعبك..والأمر بيدك.. وقد وضعت في يدنا دليل بعثك الى جهنم من دون ان تعرف من اين سيأتيك الموت..ماذا قلت؟

وكانت الرسالة واضحة لشعبان: عميل مكشوف منح وقتاً للصلاة قبل تنفيذ الاعدام.. ولم يكن أمامه أفضل من عرض كهذا ليخرج مرة اخرى من هذه المغارة المعتمة الى نور الحياة..

لكنه ما ان عاد الى القرية بعدما اوصله الملثمون الى سيارته في مكان آخر حتى انقلب على كل ما أتفق عليه.. وراح يشيع في القرية بان فارس اختطفه وعذبه، واجبره على توقيع اعترافات كاذبة تسيء الى سمعته الوطنية.. كما راح يدور على البيوت التي كلف عمر باسقاط ابنائها ليحذرهم منه.. وكانت غايته في كل ذلك ان "يتغدى" بالتنظيم قبل ان "يتعشى" التنظيم به.

ومما كان يعرفه من معلومات، وبمساعدة افراد شبكته نجح شعبان اخيراً في اثارة خلاف عشائري كبير في القرية، وشقها الى مؤيد له ومن بينهم عناصر من التنظيم من عائلة شعبان من واقع ما يعرفون عنه من سمعة وتاريخ في الوطنية، وبين مؤيد للتنظيم ولفارس الذي اضطر اخيراً الى عرض اعترافات شعبان بالصوت والصورة لاظهار الحقيقة.

لكن الخلاف ازداد اتساعاً، ورغم تدخل قيادة الانتفاضة والوجهاء وكبار القرية في محاولة لمصالحة الطرفين، الا ان احداً لم ينجح ازاء تمسك فارس بالادلة التي لديه، وتمسك شعبان بتقديم اعتذار علني من التنظيم عن تشويه صورته الوطنية امام الناس.

كما تدخل ابوالنمر ولكن بطريقة اخرى، فقد عرض على المختار ان ينقل الى فارس رغبته في اللقاء معه في اي مكان يريده لغرض واحد، وهو ان يقنع فارس بالتخلي عن المقاومة وتسليم نفسه مقابل السجن لمدة ستة اشهر لا يطارد بعدها، واما ان يقنعه فارس بغير ذلك، وفي الحالتين تعهد ابوالنمر ان لا يقدم على اعتقاله أو اغتياله. لكن فارس سخر كثيراً من هذا العرض.

obeikandl.com

الفصل السابع والعشرون

على شفير الهاوية

انقطعت صلة عمر بشعبان، ومع انكشاف أمره التحق بالمطاردين في الجبال خوفاً من انتقام ابوالنمر الذي تفجر غيظاً عندما أدرك ان فتى لم يتجاوز مرحلة الطفولة نجح في أن يضحك عليه ويتسلل الى قلعة عملائه التي كان يظن انه بناها منيعة وغير قابلة للاختراق لاكثر من عشر سنوات..

وحبلت الشهور الثلاثة التالية على اعترافات شعبان بالكثير من الاحداث التي اقامت الدنيا على قدم ولم تقعدها.

فقد ودع العرب عامهم الماضي ليبدأوا مواجهة ساخنة بين تحالف مؤيد لبغداد وآخر تقوده واشنطن بعد ان وجهت أزمة الخليج ضربة قاسية إلى

obeikandl.com

الموازين والمفاهيم القائمة بينهم، فأحدثت شرخاً خطيراً في جسد الوطن العربي.. واعيد عشرات الاف الفلسطينيين مطرودين من غربتهم الى الضفة الغربية وغزة والاردن... وعلق آلاف آخرين منهم على الحدود..

وتماهت الانتفاضة مع لون الحرب .. فقد تجففت منابع تمويل منظمة التحرير التي توزع جنودها جوعى بلا رواتب في عدة دول عربية منذ خروج قواتها من لبنان عام 1982.. واعلنت إسرائيل إن جيشها يعمل انطلاقا من افتراض أن حرباً ستندلع في الخليج ستكون لها عواقب عليها، واعلنت حالة التعبئة العامة في صفوف قواتها للرد على أي هجوم عراقي محتمل، وحشدت المزيد من قواتها على امتداد حدودها مع الأردن، وحذرت الفلسطينيين من تصعيد الانتفاضة اذا اندلعت الحرب..

وبالمقابل زاد الاردن من حجم قواته المسلحة على خط الحدود كأجراء وقائي لتجنب ضربة فجائية، وتعقدت الامور اكثر بصدور انذار دولي بسحب القوات العراقية من الكويت في موعد اقصاه 15 يناير 1990، تبعته حرب على مواعيد للقاء "فرصة أخيرة" بين كل من وزيري خارجية امريكا والعراق مع رئيس بلد الآخر..

ورغم اعلان ابوعمار أنه وصدام لا يصران على حل المشكلة الفلسطينية قبل انسحاب القوات العراقية من الكويت، وتأكيده أن البيان العراقي الذي يربط بين انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية، وانسحاب العراق من الكويت، قد اسقط من المطالب القائمة كشرط للتفاوض، الا ان "الميل الاضافي" الذي عرضه بوش لايجاد حل سلمي اخير لازمة الكويت لم تزد مسافته عن لقاء عقد في جنيف لست ساعات وامتد على ثلاث جلسات على اساس " لا مفاوضات، ولا حلول وسط، ولا محاولات لحفظ ماء وجه العراق، ولا ربط بين أزمة الخليج ومشاكل الشرق الأوسط، ولا مكافأة للمعتدي"، وانما لغاية واحدة فقط وهي تسليم "انذار مكتوب" من بوش لصدام رفض طارق عزيز استلامه من نظيره جيمس بيكر.

وفي اليوم نفسه سمعت لاول مرة فكرة فرنسية تختلف عليها مع واشنطن لعقد مؤتمر دولي أو عدة مؤتمرات دولية لتسوية الصراع العربي

.الإسرائيلي والبحث عن صيغة تضمن أمن منطقة الخليج.

ومع الحشد المتزايد للقوات الذي ارتفع الى 615 ألف جندي بينهم 370 ألف امريكيا، والاف الدبابات والمدافع، وعشرات البوارج الحربية، ومئات الطائرات المقاتلة من امريكا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا واسبانيا وبلجيكا وغيرها 31 دولة.. والانخفاض الحاد في الرحلات الجوية الى دول المنطقة.. واجلاء الالاف من رعايا الدول في العراق والكويت واسرائيل ايذانا باقتراب الحرب، حفرت القوات العراقية خنادق دفاعية ضخمة وعميقة على طول الساحل الكويتي، وعلى خط الحدود مع المملكة العربية السعودية، ومدت بداخلها أنابيب مليئة بالنفط الخام من حقل الأحمدي بحيث تشتعل النار في هذه الأنابيب من كافة الجهات حول الكويت لإعاقة أي تقدم عسكري محتمل نحو 510 آلاف جندي و4 آلاف دبابة و2500 عربة مدرعة و2700 قطعة مدفعية حشدتهم في الكويت وحولها.

وبينما استقر الوضع في بيروت بحكومة عينت من دمشق، كان الاتحاد السوفياتي يحصي أنفاسه الاخيرة.. فخرجت كازاخستان لتعلن سيادتها وأهليتها لانشاء جمهورية مستقلة تخدم شعبها.. وسرعان ما لحقت بها قيرغيزيا بقرار مماثل.. ثم في خطوة فاجأت العالم كله اعلن وزير الخارجية السوفياتي إدوارد شيفرنادزه استقالته امام المؤتمر الرابع لنواب الشعب الذي كان ينتظر منه تقديم تقرير عن السياسة الخارجية.

وبات العالم على شفير هاوية موعدها منتصف ليلة ثلاثاء لا يعرف ما سيجري بعد الدقيقة الاولى منها فجر السادس عشر من يناير 1990.

لكن كل تلك الاحداث التي هزت العالم خوفاً ورعباً وقلقاً لم يتوقف لحظة كانت تسير باتجاه مختلف مع عمر الذي عاش فيها اجمل ايام حياته.

فمع تواري المستوطنين في تدريباتهم على استخدام الملاجيء وارتداء الاقنعة الواقية، وانخفاض ظهور الجنود في القرى الجبلية لانشغالهم بسيناريوهات الحرب الوشيكة أينع موسم قطاف الزيتون حبّاً وارته اغصان الاشجار في ظلال اوراقها الخضراء بين عمر وولاء..

ففي هذا الموسم تتجلى فكرة "العونة"، وتجد جميع افراد العائلة

يشاركون في قطف الزيتون.. شيباً وشباناً واطفالاً .. تجمعهم الفرحة والكد والتعب.. اطفال يربطون الى جذوع الاشجار..وآخرون يتسلقون الغصون.. وبعضهم يعانق الثمار من فوق سلالم خشبية.. ومنهم من يهزونها بعصي طويلة، فيما تتحلق النساء حول بساط مفروش على الارض لتنقية الثمار قبل وضعها في اكياس ينقل بعضها للرص في البيوت، وتنقل الحمير معظمها الى المعاصر.

ومنذ اندلاع الانتفاضة تنغصت جمالية هذا الموسم .. فقوات الاحتلال راحت تصادر الاراضي وتجرف في طريقها الاف الدونمات المزروعة بالزيتون.. والمستوطنون اعتادوا شن هجمات منظمة على المزارع والبساتين ليكسروا ويحرقوا المئات منها، وما كان عمر ينسى تلك الذكريات الكئيبة التي خلفتها هجمات المستوطنين في قرى بيت فوريك وسالم وعزموط وبيت دجن ودير الحطب وكفر قليل، والشهداء والجرحى الذين سقطوا وهم يدافعون عن ارضهم واشجارهم.

لكن هدوء ما قبل العاصفة منحه الفرصة للنزول نهاراً الى البساتين للمشاركة مع باقي المطاردين في هذا الموسم الجميل.. اما الاجمل فكان حين تلحق به ولاء او يلحق بها الى احدى الاشجار ليتبادلا من وراء اغصانها الوارفة رسائل الحب المكتوبة على الاوراق او المسجلة على اشرطة "كاسيت".

وما كانت تلك الرسائل تخلو من عجزهما عن التعبير مما كان يتركه الوجد الجارف من الم وأسى في قلبيهما .. وعندما سألته ولاء في احداها عن مصير هذا الحب العنيد غير القابل للتلاقي أبداً في لحظة دفء وحنان كما هو الحال مع كل عشاق العالم، رد عليها عمر "إن القدر كتب علينا اللجوء كما يبدو في كل شيء.. شعبنا لاجيء في المخيمات.. ومطاردينا لاجئون في الجبال.... وثورتنا لاجئة في الكون .. وطفولتنا لاجئة في الحرمان.. وشبابنا لاجيء في المقاومة من خلف المتاريس.. وفرحنا لاجيء في الحزن.. وحزننا لاجيء في النكبة.. وكذلك حبنا ايضاً ..لا تستغربي ان ظل لاجئا في المجهول".

الفصل الثامن والعشرون

عاصفة الصحراء

قبل ان ينتصف ليل الثلاثاء الخامس عشر من يناير 1991، وقف العالم على الحافة بين السلام والحرب، وترك السياسيون للعسكريين صياغة التطورات المقبلة.. نافضين أيديهم من مسؤولية الدمار الذي ستلحقه الحرب القائمة بلا محالة.. فأعلن من أعلن عن أسفه لأن العراق لم يستمع للنصيحة بأن وجود علاقة بين احتلاله الكويت والاحتلال الإسرائيلي في فلسطين هو أمر غير مقبول سياسياً، واستمع مجلس الأمن إلى تقرير الأمين العام للأمم المتحدة، خافيير بيريز دي كويلار حول زيارته إلى بغداد، ثم إلى مشروع بريطاني–أمريكي معاكس للمبادرة الفرنسية يدعو إلى توجيه نداء عاجل وعلني إلى الرئيس العراقي صدام حسين لكي يمتثل القرارات الدولية حتى

obeikandl.com

يمكنه تجنب الحرب.

وتولى دي كويلار نفسه توجيه "النداء الاخير" الى العراق لسحب قواته من الكويت مناشدا صدام أن يحول مجرى الأحداث عن الكارثة الى اتجاه عهد جديد من العدل والوفاق القائمين على مبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

ووجه الرئيس المصري حسني مبارك نداءً مماثلاً طالباً من صدام أن يتخذ القرار بكلمة واحدة تنقذ المصائر، وأن لا يحجب عن عينيه مشاهد الآباء والأمهات في كل مكان وهم يتضرعون إلى السماء أن يحل السلام، والتجرد من كل اعتبارات ذاتية لإنقاذ شعب العراق واطفاله وأسر شهدائه من ويلات الحرب ورؤى الدمار.

ودعا الملك فهد صدام إلى تقديم البرهان إن كان صادقاً وإعلان الانسحاب الفوري من الكويت، لتعود إليها حكومتها الشرعية، وسحب القوات العراقية المواجهة، على الحدود السعودية.

لكن الرئيس جورج بوش كان قد وقع قرار تخويله من مجلسي الشيوخ والنواب باستخدام القوة لتنفيذ قرارات مجلس الأمن من أجل حمل العراق على الانسحاب من الكويت.

وتبنى البرلمان البريطاني بالإجماع قبيل انتهاء المهلة بسبع ساعات قرار الحكومة بشن الحرب ضد العراق.

وبث التليفزيون الإسرائيلي أن واشنطن وعدت تل ابيب بمهاجمة قواعد الصواريخ في غربي العراق والتي يمكن أن تنطلق منها صواريخ تصيب إسرائيل في حالة اندلاع حرب الخليج.

اما صدام الذي زار قواته في ذلك اليوم فقد اعلن ان جيوشه مستعدة لـ"ام المعارك".

ومع انقضاء الدقيقة التاسعة والخمسين قبل انتصاف تلك الليلة إنشدت الاعصاب في أجواء من القلق والتوتر.. وتحملقت عيون البشر على الساعات المحمولة في الايدي والمعلقة على الجدران لمتابعة الدقائق والثواني وهي تمر انتظاراً لانفجار بركان الحرب وسماع دوي الانفجارات والقنابل في رمال

الصحراء..

وفيما أعلن بوش في خطاب عبر التلفزيون عن اعطائه الاوامر لبدء هذه الحرب وانهائها باسرع وقت، رد صدام بخطاب مماثل بدعوة العراقيين الى الصمود، وتاكيده التمسك بتحرير الجولان وفلسطين ولبنان.

وفي الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين من صباح يوم الخميس، السابع عشر من يناير، اندلعت الشرارة.. وعصفت الصحراء بانطلاق اكثر من 400 طائرة بمساعدة من القوات الجوية والبحرية الأمريكية والبريطانية والفرنسية والسعودية لتنفيذ موجات توالت بكثافة لمدة اربع ساعات متواصلة ضد الأهداف الإستراتيجية والعسكرية داخل العراق والكويت، فيما كانت عشرات صواريخ كروز توماهوك تنهمر على بغداد بلا توقف من من البارجة ميسوري المرابطة في مياه الخليج، وبوارج حربية اخرى كانت ترابط في البحر الأحمر.

وكان المشهد مذهلاً على شاشة "السي.ان.ان" وهي تنقل من كاميرات ليلية صورة تلونت خلفيتها بالاخضر لنيران القصف الجوي والصواريخ، وسلاسل الطلقات الصاعدة من الارض نحو سماء بغداد التي تلونت بعناقيد بيضاء سرعان ما كان وهجها يتلاشى في ظلمة ذلك اليوم الداكنة والذي انقشعت فيه الغيوم قليلاً.

وعندما أفاق العالم على ضوء النهار .. كانت التقارير الغربية تتحدث عن تدمير 26 منصة صواريخ سكود غربي العراق، وقواعد جوية عسكرية، ومواقع رادارات، ومصنعا للأسلحة الكيماوية في سامراء، ومجمعا للصواريخ المضادة للطائرات، وبطاريات صواريخ، ومركزا للأبحاث العسكرية، وثلاث مجمعات للبتروكيماويات في النويصيب والفالوجة والبصرة، ومركزا لتجارب الصواريخ في الانبار، وتدمير وزارة الدفاع العراقية، التي اشتعلت النار فيها بعد قصفها ثلاث مرات، وتدمير مصفاة في نهر دجلة، وإصابة مركز للاتصالات السلكية واللاسلكية، وإصابة مركز للجيش الشعبي وسط المدينة، واصابة القصر الرئاسي ومطار بغداد، ومراكز القيادة ومراكز الاتصالات، ومحطات الكهرباء، ومركز

رشيد سلام للأبحاث، وتدمير المواقع الإستراتيجية والعسكرية في ميناء البصرة، ومركز الاتصالات في المدينة ومستودعات الوقود والذخيرة، شمال مدينة الكويت.

وفي أول ضوء من اليوم أقلعت من البحرين طائرات تورنيدو البريطانية لتقصف تجمعات القوات العراقية في الكويت. وقصفت 12 طائرة فرنسية . بريطانية الصنع، من نوع جاجوار قاعدة أحمد الجابر الجوية، داخل الكويت، ودمرت عنابر الطائرات العراقية، ومراكز الدفاع الجوي.

وجاء الرد من الجانب العراقي على الهجمات الجوية باطلاق صواريخ أرض / جو، وإطلاق النار ضد الطائرات، ووجهت المدفعية العراقية نيرانها في السعودية فقصفت مدينة الخفجي واندلعت النيران في سفينة لتكرير النفط وفي أحد خزاناته.

وفي نهاية اليوم الاول كانت طائرات التحالف قد نفذت 1300 طلعة جوية، فقدت خلالها سبع طائرات، ثلاث منها امريكية وطائرتين بريطانيتين وواحدة إيطالية واخرى كويتية، واعترفت فرنسا باصابة اربع من طائراتها. ولجأ نحو 500 عسكري عراقي إلى مواقع الخصوم.

لكن تقارير العراق اختلفت عن ذلك..فقد اعلن أولا عن إسقاط ضعف هذا العدد من الطائرات قبل ان يعلن لاحقا عن إسقاط 60 طائرة، ودعا السكان الى عدم التعرض للطيارين وتسليمهم للجيش، واستيلائه على 23 صاروخا من نوع توماهوك لم تنفجر، وبث صوراً لعدد من القواعد الجوية.. ومواقع آهلة بالسكان .. ومبان مهدمة.. وحفر كبيرة تدفقت من قيعانها المياه من قصف ليلة الجحيم الاولى.

وكان نعيم الذي نما شاربيه وطالت لحيته واصبح متديناً قد أوشك على الانتهاء من كتابة الفصل قبل الأخير من روايته حينما صم الآذان قبيل الفجر صوت قوي اخترق السماء وأيقظ الناس جميعاً .. ودب الضجيج في المعتقلات.. وخرج عمر وفارس والمطاردون من مخائبهم في الجبال.. وأضيئت الأنوار في منزل شعبان.. وصعدت ولاء مع أخوالها الى سطح منزلهم ليروا ان الجميع مثلهم قد سبقوهم الى أسطح المنازل وهم يهللون

ويتراقصون فرحاً انتظاراً للتالي من الصواريخ القادمة من الشرق لأول مرة منذ عام 1948.

ومن الثالثة وأربعين دقيقة وحتى الرابعة وخمس وعشرين دقيقة من فجر ذاك اليوم ظلت صفارات الانذار تدوي بلا توقف.. والاسرائيليون مختبئون في كل ما أعّدوه من ملاجيء لأول مرة باقنعة واقية أظهرتهم على شاشات التلفزيون مثل كائنات فضائية غريبة.. وانتشر الذعر في كل مكان .. وراحت كاميرات الصحفيين تلاحق سيارات الاسعاف والآليات العسكرية وهي تتحرك مسرعة على غير هدى في اكثر من إتجاه.. بينما كانت انفجارات أول دفعة من سبعة صواريخ سكود تتوالى في تل أبيب وحيفا وغرب القدس.

لقد وصل لهيب الحرب أخيرا الى مهاجع الاسرائيليين..وفي صدور الفلسطينيين كان ينفجر مع كل صاروخ كل ما كان كامناً في براكين التوق الى الحرية والاستقلال..

وبدا ان ساعة الحقيقة قد دنت عندما راح المسؤولون في تل ابيب يتخبطون في التصريحات بين من يصر على الرد مع وصول صواريخ الباتريوت باطقمها الامريكية من أوروبا في اقل من 24 ساعة على سقوط الصاروخ العراقي الاول، وبين من يرى التماشي مع واشنطن في عدم التورط في تلك الحرب المندلعة هناك بين أعداء عرب يدعمهم غرب تحالف معهم من أجل ان لا يكون مخزون النفط بأيديهم المطلقة.

وفي هذه المعادلة وقعت الانتفاضة بين مطرقة حرب لا يعرف مداها في الشرق وسندان حل بدأ التحضير له في الغرب مشطوبا منه منظمة التحرير.

وعندما عاد من سطح البيت.. خط نعيم بقلمه على رأس ورقة بيضاء عنوان الفصل الأخير: الموت بشرف.

obeikandl.com

الفصل التاسع والعشرون

سعد خليفة

دامت الحرب مائة ساعة على مدى ثلاثة اسابيع.. لكنها غيرت مصائر أمم وتواريخ وتحالفات ونظم ونظريات وعقائد ومعتقدات وأفكار كثيرة أبقت السلام الكوني على نار هادئة لاكثر من نصف قرن قبل ان ينفلت جنون حرب من نوع جديد من عقاله وراح يعيث في الارض دماراً وقتلاً وخراباً باسم الحرية والعدل.

وفي السابع من فبراير/شباط دخلت أرتال الدبابات وهي ترفع اعلاماً عربية وأمريكية وبريطانية واخرى غيرها شوارع الكويت تحت ستار داكن من سحب دخان أسود كان يغطي سماء المدينة فيما كانت ألسنة النيران ما تزال مشتعلة في حقول النفط المنظورة في الأفق..

obeikandl.com

واصطف الكويتيون على جوانب الطرق يهللون ويرقصون ابتهاجاً بانقشاع اول احتلال عربي لدولة عربية بسرعة البرق في حرب خاطفة اراد الجميع ان يقول فيها اني هنا.. فيما راح الفلسطينيون يبتلعون مرارة الظلم لأن دبابات أطول احتلال قهري في التاريخ عادت كي تأخذ مواقعها بكثافة من جديد بين بيوتهم وتخنق عليهم أنفاسهم دون ان يكترث بقضيتهم أحد.

وعندما ظهرت مئات الدبابات وناقلات الجنود العراقية المنسحبة بعد أيام "مذبوحة" في فضاء قريب من البصرة وقد تناثرت حولها جثث جنود لم يتبق منها سوى عظام وجماجم جراء قصف حارق تكتم الجميع على سره.. شعروا بان "سعد ذابح" لم يوفر منهم أحداً في شباط ذلك العام الذي لبط بهم.

وسعد ذابح كما يعتبره الفلاحون والقرويون هو سعد ماطر عاصف وغاضب، حتى أنه يمنع الكلاب من النباح لذا يقولون عنه "سعد ذبح وما خلَى ولا كلب نبح"..

وكان شعبان أول تلك الكلاب التي صمتت عن النباح.. فقد وجد مخنوقاً في فراش منزله بعد يومين فقط من اعتقال خطيب المسجد وهو خال زوجته.. وقد قيل ان زوجته ربما كان لها ضلع في ذلك وأن أولادها ساعدوها في كتم انفاسه الأخيرة تحت وسادة السرير..

ولم تمض بضعة أيام بعد انتشار خبر شعبان حتى وجدت جثتا حاتم وعبدالقادر معلقتين على الشجرة نفسها التي شنق عليها الدكتور جليل قبل ست سنوات..

والرصاصات التي اخترقت ساقي سعيد ذات يوم بعد ذلك وهو يهم بالخروج من منزله أدتا الى بترهما وتركته قعيد فراشه الى الابد..

اما بقية الكلاب من العملاء فقد لزمت بيوتها، أو نقلت الى أماكن

أخرى بتعليمات كانت تتوالى تباعاً من ابوالنمر وأعوانه..

وانطلقت المظاهرات قوية وصاخبة من جديد.. ومقابل كل شهيد دفع جزءاً من ثمن الانتقام من الصواريخ العراقية التي سقطت على المدن الاسرائيلية كان يسقط جندي او مستوطن او عميل أو أكثر..

لقد بدا واضحاً انه لا خيار غير تصعيد الانتفاضة بديلاً امام الفلسطينيين في لعبة الحياة والموت مع الاسرائيليين، أيا كان السلاح، وأيا كانت القوة.. وكان إما ان تظهر الانتفاضة قوتها على الارض وتواصل بعث الحياة في قضية شعب بات ينكره كل العالم في تلك الايام العصيبة التي انتهت بانهيار الاتحاد السوفييتي بين ليلة وضحاها.. وإما ان تنتهي منظمة التحرير، عنوان شعب فلسطين وهويته الوطنية، التي تخلى عنها الجميع في غياهب التاريخ الى الابد..

نزل المطاردون من الجبال.. وصارت المواجهة على المكشوف.. في الشوارع يتقابل الثوار المطاردين مع قوات الاحتلال نهاراً في الزوايا وعند الحواجز.. وفي الليل يحكمون منافذ القرى والبلدات الجبلية بقوة السلاح.

وذاع صيت فارس بطلاً من أبطال الانتفاضة الصناديد.. كما ذاع الى جانبه صيت عمر "الفتى الذي ضحك على المخابرات" .. والذي وجد متسعاً اكبر من الوقت لملاقاة ولاء في تلك الايام حالكة السواد كي يرسم معها حلمه الذي تحقق بعد سنين في ان يعود اليها ذات يوم طبيباً..

وكان ذلك ما يقلق ابو النمر فعلاً.. ففي اقل من شهر غاضب وعاصف يحمل سيماء "سعد ذابح" تهاوت معظم الشبكات التي كدّ في بنائها منذ اكثر من عشر سنوات.. فأعدم من اعوانه العملاء من أعدم.. واختفى العديد منهم دون ان يظهر لهم أثر حتى الآن..

وفي معتقل عسقلان كانت الأنباء تتوالى من الخارج تباعاً.. وعندما بلغ غسان مقتل شعبان وحاتم وعبدالقادر ضج القسم بالهتافات، وخمنّوا أن الفاعل في كل تلك العمليات هو نعيم..

إمّا نعيم.. فعندما جاءه الاتصال أخيراً من ابوالنمر كي يراه لأمر يتعلق بيحيى عياش، فانه كان ينتظر ذلك الاتصال على أحر من الجمر.. فقد كان قد أتم كل ما كان يراه ضرورياً .. واستعد للحظة النهاية الحاسمة.. وقبل ان يخرج من منزله لآخر مرة في ذلك اليوم.. كتب مدخلاً للفقرة الاخيرة التي لم يكتبها أبداً من بعد في روايته:

وهكذا قتلته:

فعندما وصل الى مكان اللقاء في الخضيرة طلب منه ابوالنمر الذي كان في سيارته ان يصعد الى المقعد الخلفي، وما ان اقترب من الباب حتى أطلق نعيم الرصاص بشكل مفاجئ من الخلف على رأس ابوالنمر ليرديه قتيلاً على الفور، ثم وجه مسدسه الى السائق فأصابه بجروح ولاذ بالفرار، لكن حارس ابوالنمر الذي لم يصب بأذى لحق به وأطلق النار عليه .. فقتله.

وفي كل مكان اخر.. كان يوم اخر من المواجهات والمظاهرات قد انتهى بسقوط شهداء وجرحى .. وظل الجنود من بعدها كامنين وراء الزوايا والمتاريس بمدرعات واليات مصفحة حتى ساعات المساء..

اما الاطفال فقد ظلوا ينتظرون اطلالة اي شيء يتحرك من ناحيتهم ليمطروه بالحجارة من اماكن مقابلة تناثرت فيها اكوام من "الدبش" و"الطوب" المكسر، وعلت فيها سحابات متباعدة من دخان اطارات ما كان ينطفىء احدها حتى يشتعل غيره على الفور.

ومن مكانه الذي جلس فيه الى جانب عدد من المطاردين المسّلحين على ربوة تطل على فضاء فسيح، رفع عمر عينيه عن الكتاب الذي كان يراجع درسا فيه، ليجول بصره في ارجاء السماء..

كل شيء تغير في العالم تحت هذه السماء الواحدة في اقل من عامين..ولم يتغير شيء من الواقع على ارض فلسطين..

امم ولدت .. واخرى توحدت .. وتاريخ راح يخط سطوره من مسارات جديدة بعضها ارتد في اتجاه معاكس .. وتحالفات تشكلت .. ونظم تغيرت .. ونظريات نسِفت .. وعقائد ومعتقدات تقاربت وتطرّفت.. وانهار الاتحاد السوفييتي في نهاية ذلك العام لينهار الكثير من حوله .. وتسقط افكار كثيرة من تلك التي ابقت السلام الكوني على نار هادئة لاكثر من نصف قرن .. تاركة جنون حرب من نوع جديد ينفلت من عقاله ليعيث في الارض دمارا وقتلا وخرابا باسم الحرية والعدل.

وظل الاحتلال.. وظّلت المقاومة.

ـ انتهت ـ

obeikandl.com

الفهـــــــرس

الإهداء	3
هذه الرواية	4
الفصل الاول: سعد الخبايا	5
الفصل الثاني: " عصفور " في عسقلان	11
الفصل الثالث: بانتظار الحقيقة	17
الفصل الرابع: قراءة سياسية	23
الفصل الخامس: إغتيال عالم ذرة	27
الفصل السادس: تداعيات ذكرى	37
الفصل السابع: بعيدون عن الشبهات	43
الفصل الثامن: مفاجأة في المتزة	49
الفصل التاسع: رسالة حب	57
الفصل العاشر: اجتماع في مغارة	63
الفصل الحادي عشر: شراك على الطريق	69
الفصل الثاني عشر: مشوار الى تل أبيب	77
الفصل الثالث عشر: هروب من النيران	85
الفصل الرابع عشر: اعتقال عمر	89
الفصل الخامس عشر: معلومات مذهلة	97
الفصل السادس عشر: تجنيد عمر	105
الفصل السابع عشر: خروج نعيم	113
الفصل الثامن عشر: خروج عمر	117

obeikandl.com

الفصل التاسع عشر: ليلة في طلوزة	121
الفصل العشرون: العودة الى التنظيم	127
الفصل الحادي والعشرون: أزمات في الجوار	133
الفصل الثاني والعشرون: طبول حرب	137
الفصل الثالث والعشرون: لحظات حرجة	143
الفصل الرابع والعشرون: خطف شعبان	149
الفصل الخامس والعشرون: دموع الندم	153
الفصل السادس والعشرون: اعترافات شعبان	161
الفصل السابع والعشرون: على شفير الهاوية.	167
الفصل الثامن والعشرون: عاصفة الصحراء	171
الفصل التاسع والعشرون: سعد ذابح	177
الفهرس	182

obeikandl.com